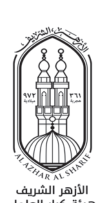
مائة سؤال عن الإسلام

للشيخ/ محمد الغزالي

الجزء الثاني



مجلة إسلامية شهرية يصدرها مجمع البحوث الإسلامية
تأسست عام ١٣٤٩ هـ - ١٩٣١م







مقدمة

قلبت ببصري في عشرات الأسئلة المعروضة عليّ ثم قلت لصاحبي[١]: إنني في كتبي الكثيرة قد تعرضت لهذه الموضوعات، وأحسبني أجبت عنها إجابة شافية.!

قال: لا تستطيع أن -تحيل الناس على ما كتبت في أسئلة محددة توجه إليك، أعط خلاصة علمية موجزة سهلة في الموضوع المطلوب منك، حتى يرجع السائل وقد أضاء الحق لبه وقلبه!! وتريثت قليلًا ثم قلت لنفسي: إن هذا العلم خزائن، لعل الأسئلة تكون مفاتيحه! وما يدريني؟ لعل الله يؤتيني الرشد ويلهمني الصواب، فأكشف ظلمة، أو أمحو حيرة، أو أطفئ فتنة، أو أثبت حقًا يعصف من حوله الباطل... وقررت أن أجيب بعد أن يعافيني الله من بعض العلل.

ولما شرعت أكتب، وجدت أني قلما أكرر نفسي، ففي هذا الكتاب حقائق جديدة، أو أداء أخصر وأيسر، أو ترتيب لأدلة كانت مشوشة، فيما يقرأ الناس من علوم الدين، أو مزاوجة بين التراث القديم والعقل الحديث.

فإذا وقع بعد ذلك تكرار لفكر سبق فهو مغتفر -إن شاء الله- مع هذه الفوائد الجمة اللاحقة.

إن اللوم يتجه إلينا- نحن دعاة الإسلام- لأننا لا نعرف طبيعة العصر الذي نعيش فيه، والمنطق الذي يقنع أهله،

(١) الأستاذ خالد محمد خالد.





والشبهات التي جدت مع مدنيته ! وبعضنا قد يحيا متخلفًا عن عصره ألف سنة، يخاصم فرقًا بادت، ويناقش قضايا نسيت ما يحب الناس أن يسمعوا عنها جدًا ولا هزلا، والإِسلام لا يخدم بهذا الأسلوب.

وحين نظرت في الأسئلة المطروحة عليَّ أدركت أنها وضعت بحكمة وسيقت إلى هدف، وأن الإِجابة الحسنة عنها تغني الثقافة الإِسلامية، وتجلو غبارًا كثيرًا عن حقائق الرسالة الخالدة، إن الإِسلام دين عظيم حقًا، بيد أن الساسة الذين حكموا باسمه من بضعة قرون لم يرتفعوا إلى مستواه، إلا من عصم الله، وكان لذلك أثره في مسيرة الدعوة، وإيضاح معالمها ! ومصابنا هنا يجب أن يجبره نشاط علمي دءوب مخلص شجاع، يرد التهم ويقيم العوج وينفع العالمين برحمة الله المهداة، ويصل الناس بربهم عن الطريق الوحيد المحترم، طريق العقل المفتوح والمنطق السمح والجدال الحسن.

وإنها لفجيعة أن يسبق إلحاد أعرج، ويتأخر هدى مستقيم لا لشيء إلا لأن حملة هذا الهدى كسالى، ومفرطون !

أعترف بأني لولا عون الله ما كنت لأخط حرفًا، فقد حاصرتني متاعب كثيرة، وأملي أن أكون قد وفقت، ونلت ما أطمح فيه من مغفرة الله ورضاه.

محمد الغزالي





١ - ما الإسلام؟ ولماذا سمي كذلك؟

الإِسلام: الخضوع لله، وتسليم النفس والأمر إليه سبحانه، أي إقامة العلاقة بين الإِنسان وربه على مبدأ (السمع والطاعة)!

قد يشعر امرؤ بأنه لا سلطان لأحد في الأرض والسماء عليه، وأنه يفعل ما يهوى دون ارتباط بتوجيه ما. وقد يقبل هذا الشعور في تحديد العلاقة بين إنسان وإنسان مثله، أما بين الإِنسان وربه الذي خلقه بقدرته، ورباه بنعمته، ورسم له طريقًا مستقيمًا وأمره أن يسير عليه، فلا مكان لهذا التمرد والشموخ.

إذ الواجب أن يجعل الإِنسان نفسه تابعًا لمراد الله، أو الشخص الذي يتلقى التعليمات من أعلى ويرى ضرورة التزامها، قال الله تعالى:

﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾

(لقمان: ٢٢)

وماذا يمكن أن تكون العلاقة بين الخالق والمخلوق؟ بين موجود سيقضي على ظهر الأرض بضع عشرات من السنين تقل أو تكثر، ثم يرجع بعد ذلك إلى من أوجده؟ أتكون علاقة تجاهل أم معرفة؟ أتكون علاقة تمرد أم خضوع؟






إنه طبيعي جدًا أن يعرف الإنسان هذا الرب الكبير، وأن يرتبط بأمره ونهيه وأن يتوجه وفق هديه، وهذا هو معنى الإسلام وهو المعنى الذي قرره المرسلون.

قال تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾

(آل عمران: ١٩)

والمرء إذ يعلن خضوعه لله واحترامه لوصاياه، وانقياده المطلق لتوجيهه- سبحانه- يتجاوب مع الكون كله الساجد لربه، الهاتف بمجده

﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾

(آل عمران: ٨٣)

ويخطئ من يظن الإسلام عنوانًا خاصًا بالدين الذي جاء به (محمد) منذ خمسة عشر قرنًا، إن الإسلام عنوان لجميع الرسالات التي هدت الناس من بدء الخليقة إلى يوم الناس هذا.

صحيح أن حقيقة الإسلام بلغت تمامها، وأخذت صورتها الأخيرة في رسالة محمد ﷺ بيد أن هذا العنوان أطلقه القرآن الكريم على ما بلغه أنبياء الله كلهم دون استثناء.

إن إسرائيل- وهو لقب التشريف ليعقوب- ليس إلا نبيًا





دعا إلى الإسلام وتشبث به ومات عليه وأوصى به أولاده

﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾

(البقرة: ١٣٣)

والواقع أن الدولة التي تسمى اليوم بإسرائيل هي اسم بلا مسمى، وعلم على وهم كبير، لأن إسلامها لله صفر أو قريب من الصفر.

وكان عيسى يعلم أتباعه الانقياد لله وصدق عبوديته، وتأمل في هذه الآية

﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّۦنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾

(المائدة: ١١١)

ويشمل وصف الإسلام جميع الأنبياء الذين نفذوا الأحكام السماوية بدءًا من عهد التوراة إلى اليوم قال تعالى:

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ﴾

(المائدة: ٤٤)

ولا يصح الإسلام إلا باكتمال حقيقتين مهمتين أولاهما:





حسن معرفة الله، وتصور الألوهية بأمجادها كلها، فلا يعد مسلمًا من أشرك بالله شيئًا، أو نسب لله ولدًا، أو ظن الذات العليا متلبسة بالعالم حالّة في الكون الذي نعيش فيه، لابد من العلم الصحيح بالله، ويجيء من بعد ذلك الانقياد له وتنفيذ أوامره.

وفي القرآن الكريم فيض غامر من تنزيه الله، والثناء عليه، وإحصاء لأسمائه الحسنى وصفاته العلى، وإبراز لمعالم العظمة الإلهية لا مثيل له في كتاب قديم أو حديث سماوي أو أرضي.

فأنت تحس عند قراءة القرآن بالشهود الإلهي على كل شيء، والهيمنة المطلقة

﴿لَهُۥ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ أَبۡصِرۡ بِهِۦ وَأَسۡمِعۡۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيّٖ وَلَا يُشۡرِكُ فِي حُكۡمِهِۦٓ أَحَدٗا﴾

(الكهف: ٢٦)

وكيف لا يسلم المرء نفسه لمن خلق كل شيء ودبر كل أمر، وملك السمع والأبصار، وقلب الليل والنهار، وأرسل الرياح لواقح، وفرج الكروب، وأخرج الحيارى من الظلمات إلى النور، وفي القرآن الكريم إنكار شديد وغضب هائل على من ينسب لله ابنًا، أو يجعل له بعباده شبهًا





﴿ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱلۡغَنِيُّۖ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ إِنۡ عِندَكُم مِّن سُلۡطَٰنِۭ بِهَٰذَآۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٦٨ قُلۡ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ ﴾

(يونس: ٦٨، ٦٩)

وبعد إثبات هذه الحقيقة في صحة المعرفة بالله تجيء الحقيقة الأخرى، وأساسها الانقياد التام لله، والاصطباغ بطاعته.

ولا يجتمع إسلام لله وتمرد عليه، أو خضوع له ورفض لأمره!!

فهل معنى ذلك أن المسلم لا يتورط في معصية؟ الحق أن المسلم إذا عرض له عصيان كان ذلك طارئًا غير محسوب، أو عملاً انزلق إليه صاحبه وهو كاره له أو غير مستبين لشره، ومن ثم فهو يتخلص منه آسفًا ونادمًا وخجلان.

وطبيعة النفس، وظروف البيئة قد توقع المرء في سيئة ما، كالذي يقود سيارته آيبًا إلى بيته فتغفو عينه إغفاءة تفقده السيطرة على مقود السيارة فيصاب هو أو يصيب غيره.

إن نور العقل قد ينكشف، وطاقة العزيمة قد تنفد، وعندئذ يقترف المرء ما لا يليق، ولا يخرج المرء بذلك عن الإسلام





﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾

(الأعراف: ٢٠١)

ولذلك رفض النبي ﷺ استنزال اللعنة على شارب خمر أوهن الإدمان إرادته ومروءته، إن هذا الشارب يمثل نوعًا من العصيان أو حالة من الاضطراب، غير ما يقع في مجتمع آخر يزرع العنب ويعد المعاصر، ويفتح الحانات وينظم توزيع الإثم، ويفرض ضرائب على المتاجرة به، الفارق بعيد بين مستبيح لا يرى لله حقًا، ولا يحس في عمله جرمًا ومعتل خارت قواه فسقط، الأول مجرم لا مسلم والآخر مريض تلتمس له العافية، ويحسب بين أهل الإسلام.

وقد استطاع نبي الإسلام تكوين أمة مسلمة لله، تنهض للصلاة له من طلوع الفجر إلى غسق الليل، وتتردد على المساجد في رتابة ودقة يمكن أن تضبط عليهما الساعات.

كما أن هذه الأمة التزمت في شئونها المدنية والعسكرية والثقافية والسياسة أن ترضي ربها، وأن تتوجه وفق مراده، بحرص وإخلاص.

قدوتها الأولى والأخيرة إنسان تجرد للحق وأصاخ[١] من

(١) أصاخ: استمع وأنصت لسان العرب (المجلة)





أقاصي فؤاده إلى أمر الله له

﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾

(الأنعام: ١٦٢، ١٦٣)

وكذلك وعى أتباعه هذا القسم المؤكد

﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾

(النساء: ٦٥)

إن خضوع الإنسانية لبارئها الأعلى صدق وشرف، وهذا هو الإسلام.





٢- لماذا كان الإسلام خاتم الأديان؟

الإِسلام هو العلاقة الوحيدة بين الناس وربهم منذ بدأت الخليقة، وتكونت للبشر مجتمعات، ونستطيع القول:

إن القرآن حوى جملة التعاليم التي بلغها الأنبياء الكبار- أعني أولي العزم وحملة الرسالات المهمة- فلو كان موسى أو عيسى موجودين لاكتفيا بما قال القرآن في ترسيخ العقائد وتأديب الأمم.

أما الشرائع الجزئية فإِن التفاوت فيها ليست له قيمة كبيرة.

والإِسلام الذي بلغه محمد وأخذ الناس به هو الصورة الأخيرة للوحي الأعلى، وهو كذلك الصورة العامة التي تستغرق الأجناس كلها وتتناول الأجيال التي تسكن الأرض حتى قيام الساعة، النبوات السابقة كانت كلها محلية مؤقتة أي محدودة الزمان والمكان، أما النبوة العامة الخالدة- فهي نبوة محمد وحده لا يشركه في ذلك نبي من السابقين.

وعلة ذلك أن الإِسلام بعد ما زود الإِنسان بالوصايا الأخيرة للوحي الإِلهي وكل إلى عقله أن يتحرك ويشق طريقه، ويستغل قدرته على الفهم والحكم وتعرف الصواب والمصلحة، فانتهاء عصر الوحي هو ابتداء عصر العقل، وقد شرحنا ذلك بتفصيل في كتابنا (فقه السيرة).

إن نبي القرآن ﷺ أرسى دعائم العقيدة والعبادة والخلق،





وساق نصوصًا حاسمة تضبط سيرة المرء وتقاليد الجماعة، وهذه أسس وتوجيهات لا تختلف باختلاف العصور، ولا يمكن اختراق أسوارها.

أما ما وراء ذلك من شئون- وما أكثره- فموكول إلى العقل الإنساني يمحو فيه ويثبت، في ميدان العلوم والأنشطة الأرضية وشئون الحياة المدنية والأطوار الحضارية يقدر العقل على الحركة دون قيد يضعه الدين. وفي كل المجالات التي تتحدد فيها المبادئ وتتحرر الوسائل، يستطيع العقل أن يتصرف دون عائق.

فالشورى مثلًا مبدأ ديني لمنع الاستبداد السياسي، ومنع عبادة الفرد، وتمكين الأمة من فرض رقابتها على ما يعنيها.

والعقل له أن يضع من الدساتير ما يحقق هذه الغاية.

والعدل مبدأ ديني لمنع الافتيات والتظالم، وللعقل أن يشرع من القوانين وينشئ من المحاكم ما يحقق هذه الغاية إداريًا واجتماعيًا واقتصاديًا.

والجهاد مبدأ ديني لحماية الإيمان وكبح الفتنة، ووسائل الجهاد في البر والبحر والجو لا حصر لها، والإبداع العقلي في هذه الميادين لا حدود له، بل إن شرائع العقوبات المروية تركت أغلب الجرائم للاجتهاد العقلي، مثل الغش والغصب والتزوير والربا والخيانة والاختلاس وأكل مال اليتيم والفرار من الزحف... إلخ

وقد تنشأ أحوال يتعين على العقل أن يعالجها ويرقب






آثارها، لأنها لم تعهد من قبل في عهود الأنبياء، لا أقول مثل غزو الفضاء وحرب الأقمار الصناعية، بل في النشاط الإنساني العادي على ظهر الأرض، فقد جدت قضايا خطيرة جعلت الحكومات تفرض سلطانها على نحو لم يعرف في تاريخ الحياة البشرية من قبل، وما يتم هذا العلاج إلا بالعقل اليقظ، مع استصحاب هذا العقل لوحي الإيمان وتقوى الله.

إن الله لا يعجزه أن يرسل نبيا آخر، لكن هذا الإرسال سيكون عبثًا إذا كان عمل النبي المرتقب قطرة من البحر الذي سبقه أو ترسمًا لخطاه أو تكرارًا لما قاله، ومن ثم اكتفت الأقدار بكتاب محمد وحكمته في قيادة الإنسانية إلى آخر الدهر ولو أن ورثة الإسلام من أمراء وعلماء أدوا واجبهم بأمانة ما كان هناك داع لهذا السؤال: لماذا كان الإسلام خاتم الأديان؟

فإن هذا التساؤل تولد من الفراغ والقصور الملحوظين على الحياة الإسلامية العامة، وبخاصة في العصور الأخيرة.

من المقطوع به أن الأمة الإسلامية فقدت القدرة على قيادة نفسها بسبب فسادها الثقافي والسياسي فكيف تقود العالم؟ أو كيف تقدم نموذجًا لصلاحية الإسلام الأبدية لقيادة العالم؟

إن أصحاب العقول يرفضون أن يشد العالم إلى وراء وأن توضع قيود على حراكه الفكري والحضاري ولو كان الإسلام مسلكا رجعيًا، أو توقفًا حضاريًا لرفضناه دينًا يرقى بأتباعه بل دين يرقى بالعالمين.



لكن فقهاء الإسلام الحقيقيين قالوا: حيث تكون العدالة والرحمة فثم شرع الله! حيث تكون الفضيلة والحرية والمصلحة فثم شرع الله!

وماذا ينشد الناس إلى آخر الدهر غير هاتيك الغايات؟

إن اختلاف الليل والنهار لن يقلب حقائق الأشياء، فإذا كانت الوحدانية صفة الله فإن هذه الصفة لن تتغير ولن تزول مهما اطردت مواكب الزمان.

وإذا كانت تبعية الإنسان لربه حقًا لا معدى عنه، فإن تقدم الحضارة لن يعني أبدًا أن الإنسان استغنى عن الله والصلاة له والضراعة إليه.

وقل مثل ذلك في ميدان الأخلاق، والعلاقات الإنسانية كلها.

ويوم ظن أهل الكتاب أن الدين عنوان ومراسم وأوهام مقدسة قيل لهم: كلا، الدين ارتباط بالله، وإحسان للعمل، ولن يضام أحد أخلص لله قلبه، وأصلح له عمله، واستقام على الطريق، وقالوا:

﴿لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾

(البقرة: ١١١، ١١٢)

لماذا لا تكون هذه الحقائق ختام الدين كله؟ رب العالمين






يقول للناس في القارات المعمورة من أرضه، اتجهوا إلي مخلصين، وأحسنوا كل عمل تكلفون به، تظفروا بالأمن وتنجوا من الحزن وتكسبوا الدنيا والآخرة.

ماذا بعد هذا الكلام؟ وماذا يقوله نبي آخر بعد محمد ﷺ؟ على أن هناك شرائع تفصيلية ترتبط بهذا الأصل ارتباط الشجرة بجذعها، ولا يقبل الإِهمال لهذه الشرائع الفرعية!

غير أننا نلفت النظر إلى أمرين مهمين: الأول: أن تفكير المسلمين لان أمام بدع وخرافات أدخلت على دين الله وهو منها بريء، وبرزت هذه الزهواء الدخيلة في أعمال المسلمين أكثر مما برزت معالم الدين الحق، ومن مصلحة الإِسلام لكي يبقى أن ينقى من هذا الغش.

الثاني: أن الترتيب المفروض بين شعب الإِيمان سرت فيه الفوضى، فتحولت أركان إلى نوافل، ونوافل إلى أركان.

وامتدت خيمة الغيبيات لتشمل أمورًا عقلية لها منطقها الحر، وتبعت أحكام الحلال والحرام تقاليد بعض الأجناس التي اعتنقت الإِسلام.

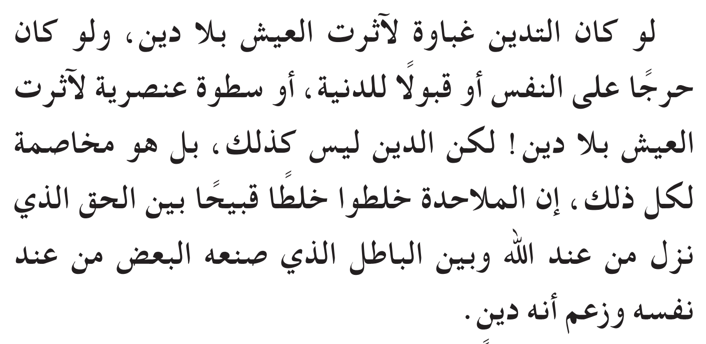
والمعروف أن الحكم الشرعي هو خطاب الله المتعلق بأفعال المكلفين، فلا حكم حيث لا خطاب.

إن الإِسلام كان ولا يزال الدين الذي ارتضاه الله لعباده إلى اللقاء الأخير، ومصلحة الإِنسانية في استمساكها بهذه العروة الوثقى.



الأزهر الشريف
هيئة كبار العلماء

٣- هل يستطيع الإنسان السوي الرشيد أن يعيش بلا إسلام؟!



لو كان التدين غباوة لآثرت العيش بلا دين، ولو كان حرجًا على النفس أو قبولًا للدنية، أو سطوة عنصرية لآثرت العيش بلا دين! لكن الدين ليس كذلك، بل هو مخاصمة لكل ذلك، إن الملاحدة خلطوا خلطًا قبيحًا بين الحق الذي نزل من عند الله وبين الباطل الذي صنعه البعض من عند نفسه وزعم أنه دين.

ومن عرض باطلًا ما على أنه دين فهو كاذب، والكفر بما عرضه واجب.

والناس في عصرنا هذا فرقاء متباينون، منهم من ينكر الألوهية ويتصور العالم لا رب له، ومنهم من يعترف اعترافًا غامضًا بالألوهية، ويحسب الأديان الكبرى متساوية المنهج والقيمة، ومنهم من يعتنق اليهودية أو النصرانية، ولا يرغب عنهما أبدًا، ومنم الوثني المغلق ومنهم المسلم الذي رضي بالله ربًا وبالإسلام دينًا وبمحمد نبيًا ورسولًا.

وفي المسلمين غوغاء يحيون وفق ما ورثوا من سنن وبدع وعلم وجهل وهدى وهوى وفيهم دعاة إلى الحق الذي نفذه السلف الكبار، ثم استوحش قليلًا وكثيرًا مع مسيرة التاريخ، ثم أمسى غريبًا في هذه الأيام.

ومشكلة الدعاة المسلمين تجيء من الصورة التي يظهر







بها الإسلام في العالم الإسلامي، وتجعل المرء السوي في بلاد أخرى ينفر منه...

وهناك مشتغلون بالعلم الديني يقدمون الإسلام على أنه حبس وتجهيل للمرأة، ويجتهدون في تقرير أحكام تظهر النساء وكأنهن جنس مهدر الحقوق، محقور المنزلة مغموض العقل يستغرب وجوده في ميادين العلم والعبادة والجهاد...

لا جرم أن النساء في شرق العالم وغربه تأبى اعتناق هذا الدين وترى الحكمة في تجنبه، ويؤازرهن في ذلك ألوف الرجال الشرفاء.

إن فتنة الناس عن الإسلام بهذه الطريقة هي شيء محزن حقًا، وكثيرًا ما أذكر قصة البدوي الذي قالوا: إنه عرض ناقته في السوق بدرهم واشترط أن يباع مقودها معها بعشرة آلاف، فكان الناس يقولون ما أرخصها لولا هذا المقود الملعون أجل وما أسهل اعتناق الإسلام لولا هؤلاء المحمولون عليه اللاصقون به.

نسأل بعدئذ: هل الشخص الملحد الكافر بالله ولقائه ووحيه يمكن أن يكون سويًا رشيدًا؟ ونجيب: إن مثل هذا المخلوق مصاب يقينًا في بصيرته وسيرته، وإنكاره لربه أفحش من عقوق الولد لأبيه البر الرحيم.

وقد تكون له موهبة علمية، لكن ذلك لا يرفع خسيسته، وقد حكمت الولايات المتحدة بالإعدام على عالم بالذرة أفشى أسرار عمله للروس، إنه عد من كبار المجرمين لأنه خان وطنه وقومه.





وما الوطن؟ قطعة من الأرض، وما القوم؟ قبيل من الناس، فكيف بمن خان رب الأرض والسماء ورب البشر كلهم؟ ألا يعد مجرمًا؟

إن عظمة موهبةٍ ما لا تنفي الإصابة بعلل مهلكة، فقد يكون المرء حاد البصر جدًا، ولكنه مصاب بسرطان يوشك أن يخترم عمره ويورده المهالك، فما غناء بصره القوي مع علته الجسيمة؟

والشخص الذي يرفض معرفة الله والتقيد بدينه مهما نبغ في أمر ما، فهو معتل الضمير، زائغ التفكير، مخوف السلوك على الأقربين والأبعدين، بل هو إلى الحيوان أقرب منه إلى الإنسان، وعبادته لهواه تجعله مشئومًا على نفسه ومن اقترب منه، وقد يعاقبه الله في العاجلة فيجعل ذكاءه ضده، فيبحث عن حتفه بظلفه ويحفر قبره بيده.

وقد وصف الله -سبحانه- عبيد أهوائهم الكارهين للاستضاءة به، والاستمداد منه فقال:

﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَـٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾

(الفرقان: ٤٣ ، ٤٤)

ولقد رأيت في أرجاء البلاد العربية أناسًا ينتمون إلى (العلمانية) ويستبعدون بعنف كل أثارة للإسلام في ميدان





التربية أو القانون أو الثقافة أو التوجيه وتفرست في وجوه هؤلاء وأعمالهم، فما رأيت صحة نفسية ولا دقة عقلية فيهم مسلمون - كما يقال - يكرهون ما أنزل الله، وفيهم كتابيون ينضمون إلى كل جبهة تخاصم الإسلام لكي يكثروا السواد ويشبعوا الأحقاد، ويتظاهرون - مع ذلك - بالحياد!!

ويستحيل وصف أحد من هؤلاء بأنه إنسان رشيد، لأنه لو كان ذا نزعة قومية مجردة لعلم أن بني إسرائيل تسلحوا بعقيدة مهاجمة، وسياسة جعلت الدين يغتصب الأرض والعرض، فكيف يقبل الدين مهاجمًا وترتضى سياسته وتحترم سطوته؟ ويرفض الدين مدافعًا ويعتبر إشراكه في التربية والتقوية سياسة رجعية مرفوضة...

على أنه ليس من الحصافة والرشد رفض نبوة محمد، وكراهية هذا الإنسان العظيم والتحامل عليه، إننا نضحك من إنسان يرى أن الأرض كوكب مثلث أو مربع، أو أن موسى عليه السلام ولد في الولايات المتحدة فكيف لا نضحك من شخص يرى بوذا إلهًا ومحمدًا قاطع طريق؟

وكيف لا نضحك من شخص يرى الإسلام عبادة أصنام واستباحة أعراض ولا يعرفه دين توحيد وعفاف؟ إذا لم يكن هذا الشخص مغفلًا، فهو جاهل بلا ريب والجاهل لا يوصف بأنه امرؤ سوي ورشيد، قد يكون الجهل عذرًا يسقط المسئولية الأخلاقية عند مخالفة القانون، ولكنه لن يكون منقبة تزين صاحبها، إن هناك يهودًا يصدقون أن الله صارع





أباهم إسرائيل وكاد ينهزم أمامهم، ونصارى يصدقون أن الطفل يولد وهو حامل للعنة الخطيئة التي اقترفها آدم، وإذا لم يعتقد أن عيسى صلب فداء له باء هو الآخر باللعنة الأبدية!

فليعتقد من شاء ما شاء، ولا يتطاول فوق مكانته، ولا يتعرض بالتكذيب للإنسان الذي جاء ينفي رسالات السماء بما أهانها، والذي جاء في كتابه هذا التقريع لكل شارد:

﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴾

(النجم: ٣٦ - ٤١)

إن جرس هذه الآيات الموجزة ينبعث دقات رهيبة الرنين تثير الحذر، وتوقظ الانتباه! أو هي ومضات متقطعة تلفت السائر في الدرب المتشابه كيف يعرف هدفه ولا يثنيه عنه.

إن الجهل بالإسلام نقص شائن، وما يستطيع أحد الاكتمال بدونه، وكيف يتزكى امرؤ استغنى عن توفيق الله وهدايته، وبشارته ونذارته، ولم ترطب قلبه لحظة خشوع، ولم يقل يومًا: رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين؟



٤ - كيف بني الإسلام على خمس ؟! وما هي؟ ولماذا خمس بالذات؟

شرحنا أن الإسلام هو العنوان المعروف للدين الذي جاء به خاتم الرسل محمد ﷺ ، وأن الأنبياء الأوائل بلَّغوا صورًا محدودة لهذا الإسلام تناسب مَدارك الأمم الأولى وقدراتها، فالدين في الحقيقة واحد، يشبه إنسانًا في فترات الصبا واليفاعة، ثم اكتمل هذا الإنسان وبلغ أشده، اكتمل مبنى ومعنى، ذلك هو الفرق بين الرسالة الإسلامية كما بلَّغها النبي الأخير، وهذه الرسالة كما بلَّغها في فجر الخليقة مرسلون محليون محدودون.

وبناء الرسالة على خمس يحتاج إلى إيضاح؛ فإن شعب الإيمان ومعالم الانقياد إلى الله تقارب السبعين عنصرًا.

وهذه العناصر السبعون مُبينة في كتاب الله وسنة رسوله، وهي تتناول الفرد والمجتمع والدولة، وتستوعب قضايا خلقية واجتماعية واقتصادية وسياسية كثيرة! من أجل ذلك لم يقل الرسول ﷺ الإسلام مؤلف من خمس أو يتكون من خمس، وإنما، قال: «بُني على خمس». (رواه البخاري، ومسلم)

فهو يشبه الخيمة التي يقيمها الجوالة في رحلاتهم، والخيمة تقوم على عمود أساسي في وسطها، وأربعة أعمدة تمد جوانبها وتثبت قماشها!

وأنت تعلم أن جسم الإنسان يتكون من أعضاء وعضلات






وأربطة وأعصاب وعظام وحواس... إلخ، ومع ذلك فهناك عدة أجهزة رئيسية هي دعائم هذا الكيان الدقيق أحصاها علم الأحياء في: (١) الجهاز العصبي (٢) الجهاز الدوري (٣) الجهاز الهضمي (٤) الجهاز التنفسي (٥) الجهاز التناسلي. والتنويه بهذه الأجهزة ووظائفها لا يلغي بقية ما يتكون جسد الإنسان منه.

والخمس التي بُني عليها الإسلام هي: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصيام رمضان، وحج البيت، هذه دعائم البناء، ودعائم البيت غير جدرانه وسقفه وأبوابه ونوافذه ومرافقه.. إلخ.

وشهادة التوحيد ترجمة عن الإيمان القائم في القلب، والإيمان معرفة بلغت حد اليقين أو تصديق جازم لا يحتمل الريبة، وانقياد لله لا يقبل ذرة من تمرد.

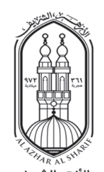
عندما يشهد المرء أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله فقد عالن الناس ورب الناس بأنه ارتضى هذا الدين، ولزم منهجه، وتبع قائده.

ولا تُقبل هذه الشهادة من قائلها ما لم يكن لها رصيد قائم في القلب، مهيمن على باطن النفس، ويعني هذا أن يكون المسلم ذا ضمير يرفض الدنايا، ويأبى مواقعتها، ويحذر ربه ويتقي عقوبته؛ لأنه يفقه قوله سبحانه:

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُ﴾

(البقرة: ٢٣٥)





﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾

(آل عمران : ٢٨)

﴿ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴾

(النحل : ٥١)

﴿ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾

(آل عمران : ١٧٥)

كما يعني هذا أن يظاهر المرء دينه وأتباعه وإن اشتد ساعد الخصوم، وامتد أذاهم وعظم بأسهم، وتلك حقيقة التوكل المعتمد على الإيمان بالله الكبير، إنه ينفي العزيمة الخائرة والإرادة المنسحبة ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾

(المائدة : ٢٣)

﴿ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾

(آل عمران : ١٦٠)

والإيمان مصدر ولاء لإخوان العقيدة وسخط على خصوم الحق، فالمؤمنون يحبون لله ويبغضون لله، ولا يكونون أذنابًا أبدًا ولا أشياعًا لأهل الفسوق والإلحاد:

﴿ وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ ﴾

(المائدة : ٨١)

إن شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول رمز لمعان





نفسية بالغة الأثر في توجيه المجتمع كله، ويجيء بعد الشهادة إقام الصلاة، إنه ليس أغدر من إنسان يسمع ويرى بقدرة الله، ويأكل ويشرب من خير الله، ومع ذلك يضن على ربه بساعات قلائل يتذكره فيها.

إننا ننفق الكثير من أوقاتنا في اللهو واللعب، ونستكثر لحيظات نقف خلالها أمام الله متعبدين، والمدنية الحديثة مسئولة عن السعار المادي الذي أذهل الناس عن كل شيء إلا نداء غرائزهم، إن المرء ينطلق وراء رزقه انطلاق الوحش في البرية لا يهدأ حتى يظفر بفريسته، ثم يعود فيلتهمها هو وأسرته، ثم ينطلق لمثلها في يوم جديد.

وهكذا دواليك حتى ينتهي عمره وهو يلهث وراء مآربه وحدها لا يعرف له ربًا ولا يؤدي له حقًا! ما أتفه هذه الحياة، وما أسوأ عقباها.

أما المسلم فهو بين الحين والحين يصير إلى داعي الله يهتف بصوت جهير: الله أكبر الله أكبر، فيلبي النداء، ويكرر التكبير ويسعى للوقوف بين يدي ربه قانتًا خاشعًا.

والصلاة في الحياة الإسلامية ليست عملًا فرديًا يهتم به صاحبه وحسب، بل هي سمة اجتماعية تسيطر على جمهور المؤمنين وتدفعهم إلى التلاقي في محراب العبادة جماعات متكررة من الفجر إلى العشاء.

ومن هنا جاء التعبير بإقام الصلاة لا أداء الصلاة، إذ المقصود إتيانها في جماعة، والتحشيد لها، والخشوع





فيها، وإعلاء شعائرها إعظامًا له، وإبرازًا لحقه -تبارك اسمه- ونرجئ الكلام في الزكاة والصيام والحج إلى مكان آخر، ونتحدث الآن عن الأركان الخمسة جملة لماذا كانت خمسة؟

تُرى لو كانت أربعة أو ستة أكان السؤال ينتفي؟ لا. والسؤال الدائر يسقط من تلقاء نفسه، مثل: لماذا كان اسم فلان زيدًا ولم يكن عمرًا؟ إنه سؤال يتسلسل إلا ما لا نهاية فلا معنى له، ومع ذلك فهناك إجابة مقنعة في هذه القضية قدمها الشيخ الكبير الدكتور عبد الله دراز تدور على هذه العبادات خاصة، هي شارات الإسلام ومعالمه التي تميزه عن غيره، وأن غيرها قد يقوم به يهود أو نصارى أو ماديون، كمكارم الأخلاق مثلًا!! وقد تكون هناك عبادات إسلامية محضة لكنها دون هذه الأركان في الدلالة والقيمة.

وننقل ما قاله الرجل الذكي -رحمه الله-. فبعد أن تحدث عن الإيمان وأنه عصب الحياة في الدين ومصدر الطاقة الكامنة في أعماله كلها تساءل عن الصلاة والزكاة والصيام والحج لماذا ذكرت دون شُعب الإسلام الأخرى! فقال: لأنها أعظم المظاهر وأوضح العناوين على الإيمان بهذا الدين من حيث هو دين سماوي ـ لما فيها من الاستسلام لأمر الله لمجرد أنه أمره دون قصد إلى مصلحة عاجلة من المصالح العامة أو الخاصة، أما ما عداها من الأعمال فليست لها هذه المنزلة في الدلالة على الانتماء إلى الإسلام.



ذلك أن الفروع الدينية منها ما هو باطن لا اطلاع لنا عليه كالإخلاص والتوكل والرضا، ومحبة الخير للغير وسائر ما يبحث عنه علم الأخلاق، وهذا القسم لا يصلح شعارًا ولا علامة ظاهرة للمسلمين فضلًا عن أن يكون أساسًا لشتى العبادات والمعاملات.

أما الأعمال الظاهرة في الشريعة فأنواع، منها ما يرجع إلى المصالح التي تقتضيها الفطرة، كوسائل الحفاظ على الشخص أو النوع من النظافة والستر وطلب الرزق وابتغاء النسل من طريق شريف، وكالجهاد دفاعًا عن النفس أو العرض أو الحق كيف كان.

ومنها ما يرجع إلى المصالح التي تدركها العقول وتهدي إليها التجارب كقوانين المعاملات وآداب الاجتماع من الصدق والوفاء بالعهد والإقساط في الحكم، وبذل العون للمحتاجين والدعوة إلى الخير والضرب على أيدي المفسدين.

وهذان النوعان لا يعد الاستمساك بهما دليلًا على إسلام صاحبهما، فقد يتمسك بهما مَن هو على دين باطل ومَن لا دين له أصلًا، استجابة منه لدواعي الفطرة والعقل دون نظر إلى توجيه سماوي.

بقي قسم العبادات وأعني بها الأمور التعبيرية التي لها رسوم وأوضاع دينية خاصة لا تهدي إليها الغرائز ولا العقول، كالصلاة المحدودة بأوقاتها وأعدادها وهيئاتها، وكالزكاة





المحـدودة بأنواعهـا وأنصبتهـا ومقاديرهـا ومواقيتهـا، وكالصيـام المحدود بزمانه وكيفيتـه وكالحج، والأضاحي، والكفـارات ونظام التـوارث، والعقوبات المقـدرة المعروفة بالحـدود، ونحـو ذلك من الأمـور التي لا حـظَّ للاجتهاد في وضعهـا ولا فـي تبديلهـا وتغييرهـا مهمـا تغيـرت الأحوال والعصور.

فهذه الأمور جديرة بأن تُسمى رموزًا دينية وشعائر إسلامية، لأنها لا يتعاون فيها مع باعث الدين باعث آخر من غرائز النفس ولا هدايات العقول، ولذلك لا يشارك المسلمين فيها أهلُ دين آخر بصورتها المرسومة في الإسلام.

لكن منها ما ليس بواجب قطعي عينا كالضحايا، ومنها ما لم يقصد وضعه ابتداء بل علق على وقوع شيء من المخالفة لتعاليم الدين كالحدود والكفارات..

على أن الحدود ونظام المواريث ـ وإن كانا تعبدين ـ إلا أنهما من الأمور الموضوعة لإقامة مصالح الدنيا بالقصد الأول، وقد يأخذ بهما مَن ليس على هذا الدين لما فيهما من المناسبة للعقول، فلم يبق من فروع الدين ما يصلح أن يكون أساسًا لشعائر الدين سوى الأركان الأربعة المذكورة في الحديث ـ مع الشهادتين ـ لأنها شعائر ظاهرة خاصة بهذا الدين وحده، واجبة وجوبًا عينيًا، مقصودة للشارع قصدًا أوليًا، موضوعة لإقامة مصالح الدين أولًا وبالذات، ومصالح الدنيا ثانيًا وبالعرض! فلذلك كانت لها الصدارة على سائر



الفروع، حتى نظمت مع الأصل الذي هو مبدأ الإِسلام - يعني الشهادتين - في سلك واحد وصارت القواعد خمسًا.

وهذا الكلام للعلامة الشيخ دراز من خير ما قيل في شرح بناء الإِسلام على خمس.





٥- ما مكان التصوف في الإسلام؟

... أول ما نحذر منه هنا هو التصوف الفلسفي الذي نقل عن الهنود واليونان الأقدمين عقائد الحلول ووحدة الوجود، ومشيا وراء تهويمات عاطفية بعيدة عن هدايات الإِسلام، ولا يمكن ربطها بالوحي الصحيح. كما أن هناك تصوفًا ضاهى الرهبانية البوذية والنصرانية، وأعلن حربًا على الجسد لا عقل فيها ولا جدوى منها، أو استدار للحياة الدنيا فلم ينشغل بها ولم يكدح فيها، وكوَّن أجيالًا من القاعدين والمنسحبين في ميادين الحياة شقي بهم الإِسلام دهرًا، ولم ينجحوا لا في كسب الدنيا ولا في كسب الآخرة.

إننا نرفض هذا اللون من التصوف، ونؤكد أن الإِسلام يستنكره، وأظن أن بداهات الفطرة والعلم والارتقاء الإِنساني تعترضه.

ولكن هناك تصوفا نبت في أكناف الإِيمان والإِسلام والإِحسان، ونما على أغذية جيدة من العلم والعمل، واستطاع أن يلون المشاعر الإِنسانية بصدق العبودية ودفعها إلى التفاني في مرضاة الله، والحس الدقيق بوجوده وشهوده، وجعل أصحابه يسعدون بمشاعرهم الباطنة، وإن كانت أحوالهم نكدة فيما يرى الناس، حتى يقول قائلهم، حبسي خلوة، ونفيي سياحة، وقتلي شهادة!!

هذا التصوف يحول المعرفة النظرية المجردة إلى عاطفة





قلبية مشبوبة، فالتكاليف تُؤدى برضا واستحلاء، لا بتعب ومعاناة، والمعاصي تُترك باستغناء واستعلاء، كما قال يوسف عندما تعرض لإغراء الملكة وصويحباتها، وفُرِش له طريق الغواية بالأزهار:

﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾

(يوسف : ٣٣)

وانتقال العلم من تصور ذهني جاف إلى شعور قلبي رقيق عطاء إلهي جليل القدر، وقد أشار ـ إليه القرآن الكريم وهو يذكر امتنان الله على أصحاب رسوله:

﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾

(الحجرات: ٧ ، ٨)

كما أشار إليه النبي ﷺ في قوله: «ذاق طعم الإيمان مَن رضي بالله ربا وبالإسلام دينًا وبمحمد نبيًا ورسولًا» (مسند أحمد)ويقول علماء النفس: إن للشعور ثلاثة مظاهر هي: الإدراك والوجدان والنزوع.

ونقول نحن: مَن أراد الله به خيرًا جعل إدراكه يقوم على الصدق، وجعل وجدانه يقوم على العمق، وجعل نزوعه يقوم على الشوق.






إننا عندما نرمق عظماء المؤمنين نجدهم أوتوا من عمق العاطفة بقدر ما أوتـوا من صدق المعرفة ومن ثَم يكون نزوعهم حارًا ممتدًا.

وتدبر الآيات في وصف موسى عليه السلام:

﴿ وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ ٨٣ قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ ﴾

(طه: ٨٣، ٨٤)

وتدبر حرارة الحب ونزوع الشوق فيما روي من أن النبي ﷺ كان يعرض ثوبه لبواكير المطر، ويقول: «هذا مطر حديث عهد بربه..» (مصنف ابن أبي شيبة)

أفكذلك ترى جماهير المتدينين؟ أو هل يرتفع علماء الدين إلى هذا المستوى؟ في قراءاتي وتجاربي رأيت أناسًا على حظ حسن من علوم الشريعة وأحكام الفقه، بيد أن قلوبهم خاوية من الإِحساس اللطيف، والرغبة في التسامي، والحب للآخرين، كما رأيت أناسًا في مشاعرهم لطف وفي مسالكهم إيثار، لكن يشينهم قصور علمي وفقه قليل في شرائع الإِسلام.

كلا الصنفين مسيء ومقصر! والواقع أن العالم الذي لا قلب له كالشاعر الذي لا وعي له، بلاء على الإِسلام وعائق عن الانتفاع به.

فالدين عقل وعاطفة، وعلم وأدب، ونظر صائب، وبصيرة نيرة.





ومن سوء حظ الثقافة الإسلامية فقهاء لا دراية لهم بعلم القلوب ونهج التربية، ومتصوفون صفر الأيدي من قوانين الشريعة وضوابطها!

والراسخون في العلم سالمون من هذه الآفات، ومَن يقرأ لابن تيمية وابن القيم والغزالي وابن الجوزي والرازي وغيرهم يرى رجالًا على درجة رفيعة من جيشان المشاعر والاستبصار العقلي.

واسمع للإمام المدقق ابن القيم وهو يحدو النفوس إلى الدار الآخرة، ويقول لكل سائر على الدرب:

فحي على جنات عدن فإنها
منازلك الأولى، وفيهم المخيم

أو إلى أبي حامد الغزالي الذي أشرف على تفكير أرسطو وأفلاطون، واستبان عثراته وكشف ما اعوج منه، ومع هذا الاستعلاء العقلي فهو يتحدث عن استدامته لذكر الله حتى إذا سكت لسانه ظل الفؤاد على حالته يلهج ويردد ولا ينقطع له صدى!!

وعندي أن تفاوت هؤلاء الأعلام في آرائهم يرجع إلى تفاوت العلل التي عالجوها، وتشخيص الأسباب التي أدت إليها، ذلك إلى جانب ما بين طبائع البشر من خلاف في الأذواق والآفاق.

والقدر المقبول، بل المطلوب، من التصوف يكون في






الميادين الآتية:

أولًا: في دراسة البواعث النفسية وفرض رقابة صارمة على بواعث العمل حتى تصفو النية من كل كدر وتخلص لله سبحانه.

ويلاحظ أن النفس الإنسانية شديدة المكر واسعة الحيلة، وأنها قد تحقق ما تهوى عن طريق ظاهره الطاعة، وباطنه إشباع الهوى.

ثانيًا: التمرس بمقام الإحسان، وطول البقاء في نطاق أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك، ولا يتم ذلك بتألق ذهني في خلوة بعيدة، وإنما يتم مع التقلب في البلاد والتعرض للشدة والرخاء والصحة والمرض والنصر والهزيمة.. إلخ.

ثالثا: تتبع آيات الله في الأنفس والآفاق، ومدارسة الحاضر والماضي، ومحاولة الارتقاء إلى مستوى الكتاب الكريم والسيرة الشريفة، فإن الأبواب كلها موصدة أمام من حرم التأسي بمحمد ﷺ فهو إمام الأتقياء وسيد المربين.

وفي هذا المجال أذكر أنني أفدت إفادة عظيمة من ابن عطاء الله السكندري، وقد شرحت جملة من حكمه في كتابي (الجانب العاطفي من الإسلام).

وإذا كان سعد زغلول قد وصف أدب (الرافعي) بأنه تنزيل من التنزيل، أو قبس من نور الذكر الحكيم فإني - مع إكباري للرافعي وأدبه - أرى أن كلمة سعد أصدق ما تكون في





حكم ابن عطاء الله -رحمه الله- وأعرف أن أناسا سيقولون إنني خلطت بين تعاليم الإسلام وشمائل الأنقياء من ناحية، وتراث الصوفية وتعاليم رجالهم من ناحية أخرى.

ولو صدق هؤلاء فسيكون الخلاف على أسماء لا على مسميات، ويكون سهلًا، والمهم أن تتوقد روحانية الإنسان من خلال كيانه المادي، وتشرئب عواطفه إلى السماء بدل أن يخلد إلى الأرض.

وأن يطالع أمجاد الألوهية فيما يرى ويسمع، ويتجافى عن دار الغرور، ويطمئن إلى دار الخلود!







٦- ما موقف أهل الكتاب في الإسلام؟

إذا تحدثت - أنا المسلم المُحرج في هذا العصر - عن أهل الكتاب، شعرت بظلم ذوي القربى ومقدار حزنه في النفوس. وشعرت بالدهشة للضغائن التي أَكَنَّها القوم ضد محمد وكتابه ورسالته، وما كان ينبغي بتة أن يُقابل الإِسلام بكل هذه البغضاء، ولا أن يلقى نبيه كل هذا النكير، بدأ الحديث عن أهل الكتاب مقرونًا بحسن الظن ورجاء الخير من جانبهم، وانتظار عونهم في مواجهة عبدة الأصنام الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، فإِذا كذب الوثنيون التوحيد، وخاصموا صاحبه فإِن اليهود والنصارى لن يفعلوا ذلك!

وشرحًا لهذا الموقف المرتقب يقول الله تعالى:

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَـٰبِ﴾

(الرعد: ٤٣)

وعندما يوغل المشركون في عنادهم يعتز المسلمون بأن نفرًا من أهل الكتاب أيَّدهم، وصَدَّق ما لديهم، ودخل في دينهم، قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾﴾

(القصص: ٥١- ٥٣)





وربما تعصب بعض اليهود والنصارى ضد الإسلام، وتحاملوا على نبيه ودعوته، وتجهموا لما تلقاه الرسالة من رواج هنا أو هناك فما الموقف منهم؟

يقول الله تعالى:

﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴾

(العنكبوت : ٤٦)

لكن جمهرة أهل الكتاب - خصوصًا اليهود - رفضوا الاعتراف بالنبي الجديد، ونافسوا المشركين في إطفاء نوره، واقتلاع جذوره، ووضع العوائق في طريقه حتى ينفض الناس عنه.

كان من الممكن - بمقياس العقل والمصلحة - ترك الإسلام يعرض نفسه على الناس، وهو لا يملك سلاحًا إلا الإقناع المجرد

﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴾

(المزمل : ١٩)

ومَن لم يشأ فليدعنا وشأننا وندعه وشأنه.

وتدبر هذا التوجيه الإلهي:

﴿ ٱسۡتَجِيبُواْ لِرَبِّكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۚ مَا لَكُم مِّن مَّلۡجَإٖ يَوۡمَئِذٖ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٖ (٤٧) فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ






﴿فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظًاۖ إِنۡ عَلَيۡكَ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ﴾
(الشورى : ٤٧ ، ٤٨)

فليرفض الإسلام مَن كرهه، فلن نحاول إكراهه على شيء. إن النبي مبلغ وحسب، لكن أهل الكتاب وقفوا في جبهة واحدة مع الوثنيين يعترضون للدين الجديد، ويرفضون مهادنته ولا يأذنون له بالمرور.

فإذا انشرح بالإسلام صدر ضاقت لذلك صدورهم وتمنوا لصاحبه أن يرتد عن إيمانه الجديد إلى جاهليته القديمة:

﴿وَدَّ كَثِيرٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَوۡ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِكُمۡ كُفَّارًا حَسَدٗا مِّنۡ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡحَقُّۖ فَٱعۡفُواْ وَٱصۡفَحُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾

(البقرة : ١٠٩)

... وتوجد الآن عصابات من المبشرين والمستشرقين والمستعمرين تقاتل الأمة الإسلامية، وتقترف المناكر للإتيان على رسالة محمد، وتشويه سمعته، وإطلاق الإشاعات الكاذبة حوله.

على أن هنا أناسًا من أهل الكتاب أوتوا سعة في العلم، ونزاهة في الحكم ورغبة إلى الله، آمنوا بموسى وعيسى ومحمد جميعًا، ورفضوا أن يبهتوا عباد الله الصالحين، ويناصبوهم العداء.. وقد أشار القرآن الكريم إلى أولئك الصنف الطيب





من اليهود والنصارى منوهًا بسيرتهم وعدالتهم:

﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَـٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾

(آل عمران : ١٩٩)

كما قال تعالى:

﴿ لَّـٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ۚ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أُو۟لَـٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾

(النساء : ١٦٢)

ويمتاز هؤلاء ببحثهم عن اليقين، وعشقهم للحق وازدرائهم للظنون السائدة مهما غلب سلطانها، وقد التقيت بالدكتور (موريس بكاي) في ملتقى الفكر الإسلامي بالجزائر وسمعته يتحدث بإعجاب واحترام شديدين عن أسلوب القرآن في تناوله للحقائق العلمية والتاريخية، وكيف عُصم من الأخطاء التي تورطت فيها كتب مقدسة أخرى.

وقد سأله أحد الناس: لِمَ لم يعلن إسلامه؟ فأجاب: قلما أسير إلا متوضئًا.

وقد أسلم بعض المستشرقين ممن غالبوا قيود التقاليد، ونلحظ أنه إذا أسلم عشرة آلاف نصراني فلن يسلم إلا يهودي واحد! إن النصارى أرق قلوبًا وألين عريكة





﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾

(المائدة: ٨٢ - ٨٤)

وهناك أهل الكتاب خطوا إلى الأمام خطوة واحدة، فقالوا: إن محمدًا رسول حقًا ولكن إلى العرب وحدهم!

وقد ظهر هذا الفريق قديمًا وحديثًا؛ لأنه تأمل في سيرة النبي وحبه العميق لله وتفانيه في نصرته وحرارته في دعوته، واستعداده للقائه بأمداد لا تنقطع من العبادات والجهاد، فاستيقن أن ذلك كله يستحيل أن يصدر عن كاذب، فماذا يصنع؟ قال: إنه رسول للعرب حتمًا!!

ونحن مع ترحيبنا بكل خطوة سلام من خصومنا نقول: إن هذا الموقف لا يكفي ولا يشفي، فمحمد يحمل أشفية السماء إلى أهل الأرض أجمعين، والتنكر لعموم الرسالة قريب من إنكار أصلها.

والواقع أن المطالع للقرآن الكريم يجتذبه هذا الحماس الجارف في الحديث عن الله وودحانيته وأسمائه الحسنى،



وإلحاح محمد - باسم الله - على الخلق كلهم أن يعودوا إلى ربهم الأحد :

﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ۝٥٠ وَلَا تَجۡعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴾

(الذاريات : ٥٠ ، ٥١)

أرأيت ؟ إنه نذير مبين وحسب ! من يرفض هذا الإِخلاص الرائع ؟

وهناك أهل كتاب يحبسون في نطاق ما ورثوا لا يعرفون عن محمد شيئًا ، أو يعرفون ترهات من رجال الدين التائهين أو بعض السادة الموتورين .

وتبصير هؤلاء بالحقيقة كلها دَين في أعناق الدعاة المسلمين لم ينهضوا بسداده ، تُرى متى ينهضون ؟ وحساب هؤلاء إلى ربهم ! والذي أراه أنهم مكلفون - في غياب الوحي عنهم - بمقدار ما أوتوا من ذكاء وقدرة على نقد الموروثات الرديئة واتخاذ موقف ما منها .

ولا أظن هذا الموقف ينطبق على أهل الكتاب الذين يعيشون بين ظهراني المسلمين ! والذين جند الاستعمار العالمي نفرًا منهم ارتكبوا المذابح واقترفوا المآسي وخانوا الجوار . . . !

على أن الإِسلام وضع شرائع في معاملة أهل الكتاب والتلطف معهم يمكن أن نذكرها في الفصل القادم عند الحديث عن الرسالات السابقة .





وهناك حديث يعطي معناه للوهلة الأولى حكمًا لم يقل به الفقهاء، ومن ثَم فإن قبوله مطلقًا أو رفضه مطلقًا لا يجوز! والواجب استبانة معناه الحقيقي كما قرره الراسخون في العلم!

والحديث من رواية البخاري: «أُمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فإن قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها..» مصدر الخطأ في فهم «أقاتل الناس» فقد طارت أذهان إلى أن كلمة «الناس» تعني البشر كلهم! وهذا غلط بإجماع العلماء فإنهم اتفقوا على أن الحديث لا يتناول أهل الكتاب من يهود ونصارى..!!

لماذا؟ لأن المهتدين من هؤلاء إذا ضربت الحرب بيننا وبينهم، ونسوا منطق الإيمان والحلال والحرام في تصديهم لنا، لم نقاتلهم حتى ينطقوا بالشهادتين، بل إذا كسر الله شوكتهم، بقوا على أديانهم، وجردناهم من أسلحة العدوان، وتولينا نحن الدفاع عنهم إذا هاجمهم أحد، وعليهم - والحالة هذه - أن يسهموا في نفقات الحرب.

وهذه ما أبانته سورة التوبة:

﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ﴾

(التوبة: ٢٩)



فليست الغاية من القتال إذن أن يقولوا : لا إله إلا الله، كما جاء في الحديث ! !

فإذا كان أهل الكتاب مستثنين من الحديث المذكور. فهل يتناول الوثنيين كلهم؟ ! والجواب لا ! ففي حديث آخر صحيح إلحاق للمجوس بأهل الكتاب : «سنوا بهم سنة أهل الكتاب» (مسند الشافعي) الحق أن الحديث في مشركي العرب الذين ضنوا على الإسلام وأهله بحق الحياة، ولم يحترموا معاهدة مبرمة ولا موقفًا مأخوذًا، وقد منح هؤلاء أربعة أشهر يراجعون أنفسهم ويصححون موقفهم، فإن أبوا إلا القضاء على الإسلام وجب القضاء عليه، وقد فصلت سورة براءة هذه القضية في أوائلها :

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَـٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ﴾

(التوبة : ٤)

أما مَن نصبوا أنفسهم لحرب الله ورسوله وعباده إلى آخر رمق فلا يلومون إلا أنفسهم.

وقد يتساءل البعض : لماذا جاءت كلمة الناس عامة في الحديث : «أمرت أن أقاتل الناس» والجواب أن (الـ) كما يقول علماء اللغة للعهد، تأمل قوله تعالى :





﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ﴾

(آل عمران : ١٧٣)

فكلمة الناس الأولى: تعني بعض المنافقين، والثانية: تعني بعض الكفار. وهذا هو المعهود في أذهان المخاطبين وتأمل قوله تعالى:

﴿وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا﴾

(النصر : ٢)

إن الناس هنا ليسوا البشر جميعًا، إنهم العرب وحسب!

رأيت فريقًا من الناس يخدعه الظاهر القريب في هذا الحديث فيتوهم أن الرسول يشن حربًا شاملة على البشر، ولا يزال يحرجهم حتى ينطقوا بالشهادتين.

وهذا فهم - كما أسلفنا - لم يقل به فقيه، ولا يستقيم مع مرويات أخرى في غاية الصحة والوضوح، ولم يؤثر عن تاريخ المسلمين وهم يقاتلون (الإمبراطوريات) الاستعمارية التي أظلم بها وجه الحياة قرونًا عدة.

ورأيت أناسًا آخرين يسارعون إلى تكذيب الحديث، دون وعي ويتخذون منه ذريعة إلى مهاجمة شتى الأحاديث الصحيحة دون تمحيص لسند أو متن، ودون تقيد بقواعد اللغة أو مقتضيات السياق، وقد رأيت لأولئك القاصرين أفهامًا في كتاب الله لا بد من تفنيدها وإهالة التراب عليها.



٧- هل الإيمان بالأنبياء الأولين والكتب السابقة ضروري في الإسلام؟ وما حكمة ذلك؟

وجود العالم لم يبدأ ببعثة محمد، ولا بولادة عيسى، إن قوافل البشرية تنساب في دروب الحياة قبل ذلك بقرون طويلة.

ورب العباد لم يدع عباده حيارى خلال هذه القرون، لقد اصطفى (موسى) من بين الناس وقال له:

﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ﴾

(طه: ١٣، ١٤)

ومن قبل موسى بأجيال اختار إبراهيم وألهمه أن يقول لقومه:

﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾

(العنكبوت: ١٦، ١٧)

ومن قبل إبراهيم بعث نوحًا الذي مكث قرابة عشرة قرون يلح على قومه أن يعرفوا ربهم ويوحدوه ويستغفروه ويسألهم موبخًا:





﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾

(نوح : ١٣ - ١٦)

إن المعاني التي رددها هؤلاء النبيون خالدة، والحقائق التي شدوا الجماهير إليها يجب أن يبقى صداها ما بقيت الأرض والسماء.

والنبي الخاتم أكد أنه لا يبني على فراغ، وإنما على دعائم مهَّدها السابقون، وأنه يُذِّكر الأمم كلها بالأصول التي جهلتها أو تجاهلتها : الله الواحد، اليوم الآخر، الطاعة المطلقة لرب الأرض والسماء، التزام صراطه المستقيم، الاحتكام إليه فيما شرع، التعاون على البر والتقوى، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإقامة العدالة وتحقيق الخير... إلخ.

وفي هذا يقول الله للمسلمين :

﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾

(الشورى : ١٣)

ونحن المسلمين نجزم بأن كل رشد أتاه الله رسله الأولين فقد أتى القرآن به، ثم أربى عليه بعد ذلك مما تفتقر إليه



الأجيال اللاحقة مما يسد كل ثغرة، ويمحق كل شبهة ويرد همزات الشياطين.

إنني -أنا المسلم- أشعر بولائي لموسى وعيسى ومن قبلهما من أنبياء الله، ومحبتي لأولئك المصطفين الأخيار نبعت من أن محمدًا عرَّفني بهم، وأعلن أخوته لهم وجهاده معهم في طريق مشترك!

وفي السورة الأولى - بعد فاتحة الكتاب - تذكر أصول التقوى كما بيَّنها القرآن الكريم فتشرح على هذا النحو:

﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾

(البقرة : ٢ - ٤)

ومع هذا التلاقي البيِّن بين الإسلام والأديان الأولى، فإن تاريخ الحياة مع أتباع الأديان محزن موجع، قال اليهود: ليست النصارى على شيء وبادلهم النصارى الحكم نفسه، ثم قال الاثنان معًا: ليس المسلمون على شيء!! وقال الماديون جميعًا: ليست الأديان السماوية الثلاثة إلا خرافة، وليس أتباعها على شيء!

ويظهر أن النفس الإنسانية تشدها إلى شهواتها خيوط قوية، وقد يكره المرء أن يظهر عبد غرائزه فماذا يصنع؟

يستبدل بهذه الخيوط أوامر سماوية شريطة أن تحقق





له ما يشتهي ! فإذا هو ينتمي إلى أحد الأديان ظاهرًا ودينه الباطن عبادة نفسه، وبلوغ هواه، وقد يكون التدين الفاسد أضر بالحياة من الجهل بالدين كله ! !

وعندما نطالع مسيرة الإنسانية من قديم تفجؤنا هذه المأساة، ولنتدبر قوله تعالى:

﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾

(البقرة : ٢١٣)

الجملة الأخيرة أزاحت الستار عن أسباب الاختلاف، والتعادي والتقاتل الذي وقع بين المتدينين إنه البغي.. ! !

والإنسان يتحول إلى وحش خبيث عندما يغلف شهوته بالقيم الرفيعة، ويزعم أنه يقاتل من أجلها والواقع أنه يقاتل من أجل شيء آخر.. !

لنترك هذه التهم فكل دين ابتلي بمستغلين أساءوا إلى الناس باسم رب الناس.. ولنشرح تحديد الإسلام لعلاقته بمن سبق من رسل، وبما سبق من كتب.

عندما شاء أهل الكتابين السابقين تحكير الهدى على ما عندهم وحدهم

﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ





حَنِيفًاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾

(البقرة: ١٣٥)

قال الله لأتباع محمد:

﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴾

(البقرة: ١٣٦)

إن هناك وحدة دينية يدعو إليها النبي الخاتم تقوم على أصول عامة جامعة، وصحيح أن هناك اختلافًا في الفروع تنوعت من أجله الشرائع على مر العصور، لكن الخلاف في هذه الشرائع ذا وبال.

وعلى أية حال فإن شبكة القوانين التي رسمها القرآن، وأوضحتها السنة هي الطريقة المثلى لضمان المصالح المنشودة إلى آخر الدهر.

ولم يقع التقاتل على هذه التشريعات الفرعية، إنما وقع التقاتل على أركان العقيدة وأصول الإيمان، وإن كان الشرود المبدئي قد جر إلى مخالفات أهدرت معالم الحلال والحرام، وجرَّأت على اقتراف الربا والزنى والسكر وكثير من الآثام.

ونحن المسلمين المصدقين بنبوة موسى وعيسى، وبما أنزل الله عليهما من كتب، نرى أن اليهود والنصارى هجروا ما أنزل الله إليهم، وتركوا الأيام تجر عليه ثوب النسيان.






ومن هنا أوحي إلى النبي الخاتم أن يستمسك بما أوتي، وأن يلتزم الإنصاف في معاملة أتباع أولئك النبيين:

﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡۖ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡۖ لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾

(الشورى: ١٥)

ونثبت هنا أدبًا جليل القدر، التزمه القرآن الكريم وهو يحكي سِيَر الأنبياء الأولين، وما تعرضت له هذه السِّير - بعدُ - من تحريف يتصل بجوهر الإيمان، فقد ذكر سفر التكوين أن الله تنزَّل من عليائه وتناول الطعام مع نبيه إبراهيم!!

وقد أبى القرآن مناقشة هذه القضية الغريبة، واكتفى بذكر قصة ضيف إبراهيم المكرمين على حقيقتها دون تكذيب لأحد من الرواة.

والمعروف أن الله أنزل التوراة على موسى قيل: كتبها له بيده، وأمره أن يأخذ بنو إسرائيل بأحكامها.

والذي يقرأ التوراة اليوم يجد فيها مشهدًا مؤثرًا لوفاة موسى، وكيف أنه عاش مئة وعشرين سنة فلم يتغضن له جلد، ولم يكل له بصر ثم مات، وناحت عليه نسوة إسرائيل كذا يومًا، ودُفن بعرصات (مؤاب) ولم يُعرف قبره!!

وظاهر أن هذا الكلام لمؤرخ كان يسجل حياة موسى





بين قومه، ولكن كلام المؤرخ تسلل بطريقة ما إلى التوراة نفسها، التوراة التي نزلت على موسى! وأصبح جزءًا منها!!

ولم يشأ القرآن الكريم أن يكشف هذا الزيف، مكتفيًا بتقرير العقائد والأخبار الصحيحة، على نحو ما ورد في عدد الفتية أهل الكهف، ما قيمة الجدال الطويل هنا وهناك؟

﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِٱلْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴾

(الكهف: ٢٢)

ومع ذلك الخلط فقد اعتبر الإسلام أن ما لدى القوم من مواريث يجعلهم أهل كتاب، ويجعل مكانتهم أرفع من مكانة الملاحدة وعبدة الأصنام، وأن ما بقي لديهم من تعاليم سماوية يتيح مخالطتهم، والأكل من أطعمتهم، والتزوج من نسائهم وحماية معابدهم وشعائرهم.

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ﴾

(المائدة: ٤)

ويأتي الرد:

﴿ ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ





أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾

(المائدة : ٥)

والمقصود من هذا كله تذويب الجفوة، وتمويت الفرقة والتعرف بما لدينا في جو من السماحة والود. وأحسب أن هذه الحكمة من وراء السكوت المتعمد عن مناقشة مواضع التحريف الكثيرة في مرويات القوم، وأنها جزء من نطاق العفو الذي ورد في قوله تعالى:

﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴾

(المائدة : ١٥)

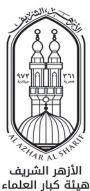
وما أجمل أن يعرض موسى قضية اليوم الآخر في خطاب الله له:

﴿ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴾

(طه: ١٥، ١٦)

والتوراة القائمة ليس فيها ذكر ليوم القيامة أو الجنة والنار.





وما أجمل أن يعرض عيسى نفسه قضية التوحيد فيقول لقومه:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ (آل عمران : ٥١)

هكذا عرض القرآن النبوات السابقة لتبقى تعاليمها مع النبوة الخاتمة هداية للإنسانية حتى يومها الأخير.



٨- ما مفهوم الإسلام عن الحياة والموت؟

نظرت عن كثب إلى الفندق الذي أنزل به – وكنت في أحد أسفاري – ثم دار في نفسي هذا السؤال :

تُرى كم شخصًا سكن غرفتي قبل أن أسكن فيها ؟ وكم شخصًا سيحل مكاني بعدما أغادرها ؟ ما أوهى علاقتي بهذه الغرفة ! وأحسست أن هذه الغرفة ، بل أحسست أن الفندق كله شبيه بهذه الدنيا نظهر بها بغتة ثم نختفي .

إن ناسًا كثيرين قرُّوا هنا ثم ولوا .

لقد رأى بعضهم بعضًا كما يرى النزلاء أنفسهم حينًا في صالة الفندق وكل مشغول بشأنه يعيش في جوِّه الخاص فما تربطه بغيره إلا نظرة عابرة وبسمة عارضة !

هكذا التقى أبناء كل جيل بأترابهم ، ثم ... ثم ... انتهوا .

وتذكرت الآية التي وصف الله بها هذه الحياة :

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْۚ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴾

(يونس : ٤٥)

وشعرت بأن الدنيا تظفر من اهتمامنا بأكثر مما تستحق .

هل هذه حقيقة الدنيا ؟ وترددت شيئًا ما في الإجابة ثم تأتي : على أية حال لا خلود لنا هنا ، إننا راحلون يومًا ، ولكننا نؤثر أن نتناسى ذلك اليوم !

لست أسجل هذه الخاطرة تهوينًا لشأن الدنيا ، إن شأنها





يجب أن يهوي عندما تحاول احتواءنا، وعندما نفقد فيها عزيزًا فنكاد نهلك، أو عندما نكسب فيها نفيسًا، فنكاد نلقى مصير دودة القز التي تختنق داخل ما تنسج بريقها الناعم.

والمخدوعون في الدنيا أعداد فوق الحصر، إن قتالهم رهيب للحصول على مغانمها وتصارعهم دامي الجوانب للعَبِّ منها دون وعي!

وتحت الأقدام في هذه الساحة الخسيسة أرحام مقطوعة، وحرمات مُنتهكة، ومروءات ضائعة، وصداقات منسية، ومستضعفون ديسوا، وأشياء كثيرة محزنة.

ما أحقر الدنيا يوم تُنال بهذا الثمن، وما أحراها بهذا الوصف الحكيم:

﴿ وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ فَأَصۡبَحَ هَشِيمٗا تَذۡرُوهُ ٱلرِّيَٰحُۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقۡتَدِرًا ﴾

(الكهف: ٤٥)

لكن للحياة الدنيا جانبًا آخر لا بد من بحثه ودراسته، إننا نوجد فيها ونقضي فيها أمدًا لا ندري مبدأه ولا منتهاه، والذي أوجدنا أخبرنا أننا لن نُترك سُدى، وأنه لم يخلقنا عبثًا.

إننا أمام عمل جاد وامتحان خطير، وإن علاقتنا بالأشياء والأشخاص محكومة بقوانين دقيقة، وإننا خلقنا للبقاء لا



للفناء، وإن اليوم بذر وغدًا حصاد.

وإن المكان الممهد والزمان المحدد هما ساحة سباق هائل توشك نتائجه أن تُعلن:

﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾

(الملك: ١، ٢)

وإذا كانت الدنيا قنطرة لما وراءها فمن الحماقة محاولة الخلود فيها، أو حصر الاهتمام في مآربها وحسب!

إن ما يُستصحب منها للغد المرتقب هو الحق، والذي يعيش عبد بطنه دابة، وقيمته ما يخرج منه! والذي يَسبيه جنون المال والجاه، ويقلقل كل شيء لإثبات ذاته رجل تائه!

كان أبو الطيب المتنبي يرى أن العَظَمة هي مجد السلطة ونيل الحكم.

وتركك في الدنيا دويا كأنها
تداول سمع المرء أنمله العشر!!

كان يرى نفسه قمة يجب أن تتوج بالأبهة والسناء، وما لم يُتح لأحد! أليس القائل:

وكل ما خلق الله وما لم يخلق
محتقر في همتي كشعرة في مفرقي!!

وازن بين غرور هذا الإنسان الذاهل وبين قول ابن عطاء الله السكندري في حكمه «مَن مدحك فإنما مدح مواهب الله عندك،



فالفضل لمن منحك لا لمن مدحك» كذلك يستكين المؤمن لله، ويعرف نعمته، ويقر بعبوديته، ويمهد لنفسه عند عودته!

إن أغلب الناس بهم من نزق أبي الطيب، وشرودهم في الحياة يرجع إلى ذلك، وما أحوج الناس إلى فهم قوله تعالى:

﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾

(النحل: ٥٣- ٥٥)

الحياة الصحيحة في الإسلام أن تعتبر الدنيا لك ولست لها، إن الله لم يخلق الإنسان ليجوع ويعرى ويذل ويخزى، كلا إن له حقوقه المصونة لا في الضرورات فقط، ولكن في المتاع والزينة! لكن على شرط أن يعرف المنعم ويشكره.

بيد أن أكثر الناس يلهيه التهام ما يطلب عن رؤية مرسله كالحيوان الذي يتبع حامل البرسيم أو الفول، فإذا نفد ما بيده من طعام انصرف عنه! فقد انتهى الرباط الذي يشده إليه، لماذا يكون بعض الناس كهذه الأنعام؟ لماذا ننسى من يطعم ويكسو ولا نذكره إلا إذا احتجنا؟

إن الله أنبت الحدائق لتبهجنا، وملكنا الأنعام تغدو وتروح إلى الحقول وقال لنا:

﴿ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴾

(النحل: ٦)





ورصَّع السماء بالدراري اللامعات، وقال:

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّـٰهَا لِلنَّـٰظِرِينَ﴾

(الحجر: ١٦)

ورفض مسالك أهل القنوت الذين يحبون الحياة الخشنة فوق أرض تفور بالبركة والعطاء وقال:

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَـةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَـٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾

(الأعراف: ٣٢)

المعقول- بعد هذا الرزق المبسوط- أن ننتفع بهذا الفضل الأعلى ونقدر صاحبه حق قدره..! والحياة الصحيحة في نظر الإسلام أن تعرف ربك من خلال آفاقها. إن المهندس الماهر يضع بصماته على الآلة المحكمة التي يبدعها، ورب العالمين- وله المثل الأعلى- أظهر صفاته العُلى في خلقه هذا العالم الرائع.

وحياتنا نحن البشر فوق ظهر الأرض فرصة لا تتكرر لمعرفة الله، وإنشاء علاقة صحيحة به تبارك اسمه، وأنا لا أتفلسف حين أصف إعجابي بعظمة الله، ولا أذهب بعيدًا! إنني أملأ صدري بالهواء ثم أقول: سبحان مَن غلف كوكبنا بهذا الجو الذي تتنفس فيه ألوف مؤلفة من الناس والدواب والطيور، إن هذا الهواء سواء هب ريحا عاصفة أم نسيمًا عليلًا شيء عجيب الخلق!



وهذا الماء الذي يلف أرضنا؟ إن العلماء قالوا: إنه يكوِّن ٨٠٪ من سطح هذه الكرة الطائرة حول أمها الشمس، ومع جريها الحثيث ما سقطت منه قطرة في الفضاء، وكان المفروض أن ينسكب في كل ناحية! من يمسكه في بحاره وأنهاره؟ ويجتذبه ليبقى في قراره؟ إنه الله.

إن الملكوت الرحب الذي نسكن جانبًا ضئيلًا منه، يشير إلى ربه ويسبح بحمده، وعلينا أبناء الحياة الدنيا أن نتجاوب مع هذه الحقائق حتى إذا غادرناها إلى ما بعدها كنا أهلًا لجوار كريم!

أما إذا عشنا نأكل ونلهو وحسب فالمصير كالح. وقد نبهنا إلى هذه الحقيقة الصارمة:

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾

(المزمل: ١٩)

﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا﴾

(النبأ: ٣٩)

وحق على أهل الإيمان أن يتمكنوا في الدنيا، ويقدروا عليها بسعة العلم وقوة العمل لأن الله لم يخلق عباده كي يعيشوا على هامش الحياة، أو يضطرب في أيديهم زمامها وهو القائل:

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾

(الأعراف: ١٠)



ولهذا التمكن ثمرتان: الأولى حسن ارتفاق الأرض، واستغلال خيراتها في رفاهة الإنسان ومتاعه إلى حين.

والثمرة الثانية: تطويع ما في الأرض من قوى لدعم الحق، وإقامة نظام محكم لجعل الأمور تمشي وفق ما شرع الله، وهذا ما تنصح به الآية الكريمة:

﴿ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ﴾

(الحديد: ٢٥)

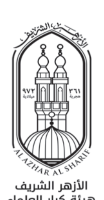
إن الجهلة بالحياة ليسوا أناسا صالحين! وكيف يكون صالحًا مَن لم يقرأ عظمة الله في صحاف كونه؟ وكيف يكون صالحًا من ملكه الله الأرض وقال له ولأمثاله:

﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾

(البقرة: ٢٩)

فعاش مِلكا للأرض تافهًا فوق ثراها وملكته هي بدل أن يملكها؟ وكيف يكون صالحًا من سمح للإلحاد أن يسبقه في كل ميدان ويهزمه في كل نزاع؟





٩- ما فكرة الإسلام عن البعث والجزاء؟

إنكار الدار الآخرة ليس بدعة هذا العصر ، فمن قديم كان هناك من يكذب الأنبياء ويتهمهم بالجنون لأنهم يؤكدون أن الموتى سوف يبعثون ويحاسبون ويثابون أو يعاقبون ! كان أولئك المكذبون يقولون للأمم التي تسمع وعيد الرسل :

﴿ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾

(المؤمنون : ٣٦ ، ٣٧)

لكن عصرنا امتاز بأنه زعم للنزعات المادية أصلا علميا وأشاع بأن الدين بعيد عن المنطق العقلي، ومن ثم شاع الإلحاد ، وعاش الكثيرون لدنياهم وحدها ، وقلما تُذكر الآخرة في مؤتمر جاد أو ينظر إليها على أنها حقيقة مقررة، والذي أراه أن الإيمان بالآخرة فرع الإيمان بالله -عز وجل- فمن آمن بوجوده لم يستبعد قط قدرته على إيجاد العالم بعد إفنائه، وإقامة ساحة عامة لحساب دقيق يلقى فيه كل امرئ جزاءه :

﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ۗ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴾

(آل عمران : ٣٠)

إن الفلاح يستطيع أن يزرع الأرض مرة ثانية بعدما





حصدها، والمهندس يستطيع إعادة بيت تهدم، فما الذي يعجز خالق هذا العالم على إنشائه مرة أخرى بعد أن يبلغ أجله الذي حدده له؟!

﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقٗا جَدِيدٗا ﴿٤٩﴾ ۞قُلۡ كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوۡ خَلۡقٗا مِّمَّا يَكۡبُرُ فِي صُدُورِكُمۡۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَاۖ قُلِ ٱلَّذِي فَطَرَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖۚ فَسَيُنۡغِضُونَ إِلَيۡكَ رُءُوسَهُمۡ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَۖ قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبٗا﴾

(الإسراء: ٤٩- ٥١)

لو كان هذا الكلام من خالق الكون- وعدًا مجردًا، ما تأخرت في تصديقه! فكيف وأنا أرى في كل لحظة من دنيا الناس خلقًا جديدًا يبرز فيه الإبداع الأعلى أجلى ما يكون؟ في كل ساعة من ليل أو نهار تقذف الأرحام بعشرات ومئات من الأجنة السوية الخلق، الدوارة الأجهزة، المتجاوبة مع عناصر البيئة التي ترتقبها، فهي تسمع وترى وتعي وتمضي في طريقها قدمًا إلى استكمال وجودها المقدور، هل صنع الأبوان شيئا من هذا التخلق الباهر؟ أعني من صنع الحيوان المنوي وأودع فيه خصائص الوراثة المادية والأدبية؟ ومن صنع بويضة الأم ومد إليها صفات الآباء والأجداد؟

﴿أَفَرَءَيۡتُم مَّا تُمۡنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمۡ تَخۡلُقُونَهُۥٓ أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡخَٰلِقُونَ﴾

(الواقعة: ٥٨، ٥٩)





إن إنشاء الحياة في عالم الإنسان والحيوان والنبات يتكرر كل يوم فلماذا نستبعد بعثا يتم مثله بين أسماعنا وأبصارنا ؟ إن ذلك سر تقريع القرآن للذاهلين عندما يقول :

﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴾

(الواقعة : ٦٢)

إن انتشار الجهالة لا يعطيها وجاهة ! وإذا كان منكرو البعث كثيرين، فليسوا إلا قطعانا من الغافلين أو المستغفلين.

وعلى كل عاقل أن يستمع إلى هذا النداء :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ﴿٦﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴾

(الانشقاق : ٦- ١٢)

. . . إن اثنين وسبعين ألفا من عرب فلسطين ومسلمي لبنان قتلوا في الحرب الأخيرة فلنفرض أن الله أدال للعرب وارتدت لهم الكرة بعد سنين طويلة أو قصيرة، سيكون الجزارون قد ماتوا، وقد يعفى عن أبنائهم أو أحفادهم- كما فعل صلاح الدين- وقد يقتص ممن لم يقترف جرمًا ! !

إن القوانين الكونية لها منطق فوق ما نعرف، ولها ضحايا يضيعون في حركتها الدائبة بقول الشاعر :



وقـالـوا يـعـود الـمـاء فـي الـنـهـر بـعـدما
ذوى نـبـت جـنـبـيـه وجـفـت مـشـارعـه
فـقـلـت إلـى أن يـرجـع الـنـهـر جـاريـا
ويـعـشـب جـنـبـاه تـمـوت ضـفـادعـه !

من أجل ذلك كانت الآخرة حافلة بالانقلابات المثيرة، رب كاسية في الدنيا عارية في الآخرة، رب مالك هنا يكون مملوكًا هناك، سيهبط ناس من الأوج إلى القاع، ويرتفع آخرون من القاع إلى الأوج

﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلۡوَاقِعَةُ ۝١ لَيۡسَ لِوَقۡعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝٢ خَافِضَةٞ رَّافِعَةٌ﴾

(الواقعة: ١- ٣)

إن الآخـرة حق لأنها تصحيح لأوضـاع، ورد لاعتبار، وتحقيق لعدل اختبر الله الناس بتأخيره إلى حين- هذا الحين جزء من نظام الدنيا، ومن امتحاناتها الصعبة، ولابد من مراعاته، ولذلك جاء في الحديث القدسي، في إجابة دعوة المظلوم «وعزتي وجلالي لأنصرنك ولو بعد حين» (مسند أحمد) وجاء في انتصار المؤمنين على الكافرين:

﴿فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ حَتَّىٰ حِينٖ ۝١٧٤ وَأَبۡصِرۡهُمۡ فَسَوۡفَ يُبۡصِرُونَ ۝١٧٥ أَفَبِعَذَابِنَا يَسۡتَعۡجِلُونَ ۝١٧٦ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمۡ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلۡمُنذَرِينَ ۝١٧٧ وَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ حَتَّىٰ حِينٖ﴾

(الصافات: ١٧٤- ١٧٨)



لقد تكرر هذا الحين وانتظامه مرتين في سياق متقارب، لأن الله لا يعجل بعجلتنا، ولأن سنن الله الكونية فوق تفكيرنا المحدود، ولكن وزن الذرة من الخير أو الشر لا يضيع أو ينسى، وحديث الإسلام عن القيامة والحساب تناول مرحلتين: الأولى مرحلة الدمار الذي ينزل بهذا العالم، والانهيار الفلكي الذي يمحو نظامه ويطفئ نجومه! وقد جاء في السنة: «من سره أن يرى القيامة رأي عين فليقرأ:

﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ ۝١ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتۡ﴾

(التكوير: ١، ٢)

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ۝١ وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ﴾

(الانفطار: ١، ٢)

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ۝١ وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ﴾

(الانشقاق: ١، ٢)، (رواه الترمذي)

ويظهر أن الهول الذي يصحب هذه الاضطرابات الشاملة يغمر الأفئدة بالفزع، والرهبة فترى الناس سكارى وما هم بسكارى.

ومجيء الساعة يكون بغتة، والناس ماضون في أعمالهم العادية، الآكل يرفع لقمته إلى فمه، والبناء يشيد البيت الذي يبنيه، والتاجر يناول البائع السلعة التي يطلبها، وهذا وذاك في جدالهم- حول شئونهم، ومستغرقون فيما يعنيهم! يقول تعالى:

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ۝٤٨ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا





صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴾

(يس: ٤٨- ٥٠)

أما المرحلة الثانية فهي مرحلة الحساب الذي يشمل الأولين والآخرين، ويحشد أبناء آدم منذ بدءوا حتى انتهوا، ويستعرض أعمالهم منذ عقلوا حتى ماتوا!!

قيل لعلي بن أبي طالب: كيف يحاسب الله الناس على كثرتهم في يوم؟ قال: كما يرزقهم على كثرتهم.

والذي نحسبه نحن أن الزمان سوف ينعدم كما ينعدم الوزن عند رواد الفضاء، وهل الخلود إلا انعدام الزمان؟ وأن رب العالمين سيجعل الخلق في حال من الإحساس العام بكل ما أسلفوه في الدنيا، وكأن أشرطة مسجلة تمر بأذهانهم ملأى بكل ما كان منهم وحكم الله فيه!

ثم يستعد كل إنسان للانطلاق إلى مصيره العدل:

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْأَخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴾

(هود: ١٠٣ - ١٠٥)

والجزاء مادي وروحاني معًا، إنه للإنسان الذي عبد بجسمه وعقله، أو فجر بجسمه وعقله! ولا يستطيع أي دارس للقرآن الكريم أن يفسر آياته في وصف الجنة والنار





بأنها من قبيل المجاز، وليس هناك بتة ما يدعو لهذا التعسف في التفسير.

والنظر إلى مادية الإنسان بأنها معرة، ولذاته الحسية بأنها هبوط هو تأثر بفلسفات خيالية لا وزن لها.

نعم إن مع هذه اللذات ما هو أسنى وأزكى، معها الرضوان الأعلى والاستغراق في شهود أمجاد الألوهية

﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ﴾

(المطففين: ٢٢ - ٢٤)

جعلنا الله من هؤلاء المكرمين.





١٠- ما البرزخ؟ وما دلالته في الإسلام..؟

المعروف عند جمهور المؤمنين أن الإنسان مخلوق من عنصرين متباينين.

جسمه من هذه الأرض خلق ونما، وروحه من نفخة من الله -سبحانه وتعالى-، فهو ليس حيوانًا وليس ملاكًا، وفي كيانه تتجاور المتناقضات، من غرائز مادية، وسبحات عقلية وعاطفية!

وعندما يموت يرجع إلى الأرض ما نشأ منها وتغذى على نتاجها، يرجع هذا الجسد ليبلى، ويفنى منه - ما شاء الله

﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴾

(طه : ٥٥)

أما الروح فله مستقر آخر، لا ندري بدقة مكانه، لا ندري كذلك ما علاقته بالجسد الذي كان فيه، هل انقطعت صلته به انقطاعًا تامًا؟ هل - عند البعث - يعود إليه هو أم يعود إلى جسد شبيه به؟ هذه أسئلة لا نبت في الإجابة عنها! إنما الذي نبت فيه أن الشخصية الإنسانية لا تفنى بالموت! وإنها رحلت من عالم إلى عالم آخر، وإنها بقيت كاملة الحس تامة الوعي، وإنها إذا فقدت الأذن والعين فلم تفقد السمع والبصر، بل قد تكون أسمع وأبصر مما كانت على ظهر الأرض، إننا قد نكون مهرة في المنطق المادي، أما المنطق الروحي فعلمنا محدود بل صفر.





وقد أخبرنا الله أن الشهداء الذين قتلوا في معارك الجهاد ومزعت أجسادهم، موتى في نظرنا نحن فقط لأنهم غابوا عنا، أما في حقيقة الأمر فهم أحياء.

وقد أسند إليهم خمس صفات تستحق التأمل.

هم أولًا أحياء لا هلكى! وثانيًا في جوار كريم لأنهم عند رب العالمين، وثالثًا في منزل خصب حافل بالخير يدر عليهم الأرزاق، ورابعًا هم فرحون بما نالوا، مغمورون بالعطاء الأعلى، وخامسًا مطمئنون على أقاربهم وأصدقائهم الذين يخلفونهم في الدنيا، إنهم على حق وإلى خير، وقريبًا سوف يجتمع الشمل ويلحق أحياء الأرض بأحياء السماء!

هذا ما تذكره الآية الكريمة:

﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَيَسۡتَبۡشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمۡ يَلۡحَقُواْ بِهِم مِّنۡ خَلۡفِهِمۡ أَلَّا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾

(آل عمران: ١٦٩، ١٧٠)

صحيح أننا لا نشعر بهذا كله ولا بعضه! وقد صرحت سورة أخرى بذلك:

﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقۡتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتُۢۚ بَلۡ أَحۡيَآءٞ وَلَٰكِن لَّا تَشۡعُرُونَ﴾

(البقرة: ١٥٤)





إن عدم شعورنا لأن أجهزة الاستقبال السمعي والبصري عندنا محدودة القدرة، وغيرنا من الكائنات يرانا ولا نراه، وكما قال العلماء: عدم العلم ليس علمًا بالعدم، إنه كما يسافر أحدنا من بلد إلى بلد يسافر الموتى من مكان إلى مكان، حيث تبدأ الحياة الآخرة، ويبدأ الحساب الرهيب تمهيدًا للمحاكمة الكبرى يوم النشور.

وهذه المرحلة المتوسطة هي البرزخ كما ذكرت الآيات:

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾

(المؤمنون: ٩٩، ١٠٠)

ويشبه ما يلقاه الفجار في البرزخ ما يفعله رجال الشرطة بالمجرمين عندما يقعون في قبضتهم، هناك تحقيق ابتدائي سريع، ثم يرمى المتهمون في السجن ريثما يقدمون للقضاء في محكمة كبرى.

ويشبه ما يلقاه الأبرار ما يصنعه رجال العلم عندما يستقبلون مؤلفًا تقررت مكافأته، أو عبقريًا منح جائزة سنية، إنه يجاء به مكرمًا ويستريح في إحدى الغرف الأنيقة ريثما يأخذ ما تقرر له.

والذين يفعلون الخير أو الشر ليسوا سواء في مراتبهم، فمن الأشرار من يتفتح له شواظ من نار يشوي وجهه حتى يوم





اللقاء ! ومن الأخيار من يتذوق النعيم من أول يوم كما جاء في وصف الشهداء، أن أرواحهم معلقة في قناديل تحت العرش ترد أنهار الجنة وتطعم من ثمارها . . !

المهم أن الموت رحلة من حياة أرضية محسوسة لنا إلى حياة غيبية نسمع بخبرها، وحسب، وقد كان الأصحاب الكرام يعرفون ذلك معرفة يقين، فلما حضرت «بلال» الوفاة صاحت امرأته:

واكرباه، وصاح المحتضر المشرف على الموت: بل واطرباه، غدًا ألاقي الأحبة، محمدًا وحزبه.

والواقع أن الموت نقله إلى عالم مستقر مطرد النمو، إن أودية الموت، من بدء الخليقة تستقبل الأجيال المدبرة، الأجداد ثم الآباء ثم الأولاد ثم الأحفاد، وهكذا من قديم، فعالم الموتى يتسع باستمرار والنتائج تتكشف فيه، ومعادن الناس تعرف.

لكل أناس مقبر بفنائهم
فهم ينقصون والقبور تزيد

وليس القصد من زيادة القبور أن مبانيها تزيد، وإنما القصد أن اللاحقين يتبعون السابقين ! مددًا بعد مدد وهؤلاء وأولئك في انتظار القيامة الكبرى حتى يجيء أوانها.

وتبدأ حياة البرزخ بلونيها من ساعة مفارقة الروح للجسد، وتدبر قوله تعالى:

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ




الأزهر الشريف
هيئة كبار العلماء

إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾

(الأنعام : ٩٣)

واليوم – لا الغد – يبدأ العقاب على ما مضى من افتراء وكبرياء.

إن الإنسان طرق الدنيا عاريًا، ولقد تقلب فيها ثم هاهو ذا، يتركها كما جاءها، لا مال ولا جاه، ولا عزوة ولا سلطان ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ﴾

(الأنعام : ٩٤)

ويظهر أنه بقدر ما يكون المرء طاغية في حياته الأولى، يكون ترصد الزبانية له وارتقابهم لمقدمه كيما يؤدب على غلوه وفساده، فتكون مراحل البرزخ الأولى لطمات تتناوله من كل جهة، وإهانات تلفه بالخزي والعار، وذلك كله أيام القبر الأولى، أعني أيام البرزخ، وليس يحتاج الأمر إلى مساءلة فما محلها إذا كان المجرم قد لحقته الوفاة وهو يقاتل الحق ويخاصم حملته من المرسلين والصالحين ترى ذلك في قصة الفراعنة:

﴿ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴾

(غافر : ٤٦)





وتراه كذلك في كبراء قريش الذين أدركتهم مناياهم وهم يقاتلون النبي ﷺ في معركة بدر قال تعالى:

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۙ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾

(الأنفال : ٥٠، ٥١)

وقد رميت جثث المشركين البغاة في بئر، ووقف النبي بعد دفنهم يقول بصوت جهير: «هل وجدتم ما وعد ربكم حقا؟ وهو يناديهم بأسمائهم! فقال له أصحابه: أتنادي قومًا جيفوا؟ قال: ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكنهم لا يجيبون». (البخاري)

إننا لا نشعر بما يلقاه الراحلون عنا، بل لا نشعر بشيء من عالم الغيب وهو عالم مديد رهيب!

ولن تتأخر نفس أبدًا عن أخذ طريقها إلى البرزخ، وملاقاة الجزاء المعد لها، مهما كان حب الأقربين والأصدقاء والأتباع، وتدبر قوله -تعالى- يصف حالة المحتضر وعجز من حوله:

﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾

(الواقعة : ٨٣ - ٨٧)






لا أريد تفسير الآيات، ولا ذكر من عجزنا عن إبصاره وهو أقرب إلى الميت منا نحن الملتصقين به الحانين عليه! اللهم إن البشر كلهم أصفار أمام سلطان الموت، وأمام ما يقترن الموت به من مبادئ الحساب.

إن الموت فضح الحياة، ومع ذلك فحبنا للحياة يعمي ويصم! وذهولنا عن الجزاء المرتقب أدهى وأمر! ذلك، وقد ورد في الآثار أن الموتى لا يرجعون إلينا، بذلك سبق القول من الله، وبذلك أجيب شهداء أحد.

ومن ثم فالزعم بأن الأرواح تستحضر في مجالس خاصة وتقص ما تلقى على الحضور يكاد يكون رجمًا بالغيب وقد تتبعت بعض ما نسب إلى هذه الأرواح الحاضرة من كلام فوجدته تخليطًا وقد يكون من عبث الجن واستهزائهم بالبشر.





١١- ما طبيعة الجزاء الأخروي؟ وهل هو روحي أم مادي؟ هل خَلْقُ الإنسان من روح وجسد شيء يعاب؟

كذلك يرى بعض الناس، بل كذلك قال أعداء الأنبياء لهم وهم يرفضون رسالاتهم وينكرون حديثهم عن الله، مقترحين أن يكون الرسول مَلكا

﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾

(الفرقان: ٧)

وكما استنكروا أن يكون المرسلون بشرًا يأكلون، استنكروا عليهم الزواج، والنسل ظانين أن الرغبة الجنسية تشين الإنسان الكبير، وعليه إذا أراد الكمال أن يكبتها.

وقد رد القرآن هذه المزاعم، وبين -جل شأنه- أن المصطفين الأخيار من عباده كانوا رجالًا ناضجي الغرائز

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً﴾

(الرعد: ٣٨)

ومع ذلك فإن بقايا من منطق الجاهلية القديمة لا تزال عالقة بأذهان الكثيرين ممن يحسبون السمو البشري لا يتم إلا بإعلان حرب مجنونة على البدن توهي قواه وتدوّخ غرائزه.





بل سرى ذلك الفكر إلى بعض المذاهب الدينية، وانبنى عليه، إن التقوى في هذه الحياة تعني الرهبانية وأن السمو في الحياة الأخرى لا يتصور مع وجود هذا الجسد اللعين! وعليه بعد ذلك فلا بد أن يكون النعيم الموعود روحانيًا محضًا وكذلك العذاب المرصد للأشقياء!!

ولما كان الإسلام دين الفطرة السليمة، ولما كان لُبابه احترام الحقيقة المجردة، فإنه رفض كل هاتيك المقدمات والنتائج، وأسس تكاليفه وأجزيته الدينية على اعتبار الإنسان كائنًا متميزًا يجمع بين جملة من المواهب والخصال المتلاقية في شخصيته، بها جميعًا يسمو أو يهبط وبها جميعًا يثاب أو يعاقب.

أو كما يقول الأستاذ العقاد: «ليس ما يدين به المسلم أن يرتد النوع الإنساني إلى ما دون طبيعته، ولكن مما يؤمن به أن ارتفاع الإنسان وهبوطه منوطان بالتكليف، وقوامه الحرية والتبعة فهو بأمانة التكليف قابل للصعود إلى قمة الخليقة، وهو بالتكليف قابل للهبوط إلى أسفل سافلين، وهذه الأمانة هي التي رفعته مقامًا فوق الملائكة، أو هبطت به إلى زمرة الشياطين».

ليس الهبوط أن يشتهي الإنسان طعامًا أو امرأة، إنما الهبوط أن يأكل المرء من سحت، أو يتصل بمن لا تحل له.

فإذا طعم من حلال، أو اتصل بأنثى لتكون زوجة يسكن إليها، ويتم بها ويمتد وجوده معها فلا شيء في ذلك أبدا.





لقد أخطأ كثير من المنتسبين إلى الدين في احتقارهم للبدن، وفهمهم أن التسامي لا يحصل إلا بسحقه، وفهمهم بعد ذلك أن الحياة الأخروية لا وجود للبدن فيها، وأن النعيم أو الجحيم معنويان، وحسب ! !

وقد سرى هذا الخطأ -كلا أو جزءًا- إلى بعض متصوفة المسلمين، فاعتنقوه، وحسبوه دلالة ارتقاء، وتجرد، فظلموا بهذا المسلك دينهم، وأوقعوا خللًا سيئًا في موازين الجزاء كما أقامها الكتاب العزيز.

وقلدوا أتباع الديانات المنحرفة في الجور على الطبيعة البشرية وبذلك أفسحوا للمذاهب المادية طريق التقدم والسيادة.

بل بلغت المجازفة بهذا البعض أن حقروا عبادة الرغبة والرهبة، وأشاعوا أن من الهبوط أن تطيع الله طلبًا لجنته، أو تدع عصيانه خوفًا من ناره حتى توهم الناس أن الأمل في الجنة والخوف من النار ليس شأن العباد الصالحين.

وهذا الضرب من التفكير لا يمكن وصفه بأنه تفكير إسلامي، إنه ضرب من الشرود والغرور تبدو تفاهته عندما نحتكم إلى العقل والنقل على سواء.

ولنبدأ بالنقل.. يصف لنا القرآن الكريم مشاهد الجزاء، فيذكر لنا أن رجلًا مؤمنًا بحث عن صاحب له كان ظاهر الإلحاد والفسوق، فوجده قد استقر في سواء الجحيم! فحمد الله أن لم يتأثر به:



﴿قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾

(الصافات: ٥٦ - ٦١)

النجاة من النار أمل ضخم لمثله يعمل العاملون، فكيف يجيء أحد من الناس، رجلًا أو امرأة ليقول: بل هو أمل تافه؟ يقول الله -جل جلاله-:

﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَامُهُ مِسْكٌ ۚ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾

(المطففين: ١٨ - ٢٦)

فالرحيق المختوم يسقاه قوم تعرف في وجوههم نضرة النعيم، وفي هذا الجزاء الجزيل ينبغي أن يتنافس المتنافسون! فكيف يجيء إنسان رجلا كان أو امرأة ليقول: لا أعبد الله طلبًا لشيء من ذلك.

إن هؤلاء الناس يكذبون على طبائعهم الإنسانية كما يكذبون على دين الله، ثم هم يسيئون تصور النعيم الأعلى، أو العقاب السرمدي.



إن الجنة دار لنوعين من المتع أحدهما مادي والآخر معنوي، فالمادي تكريم للإنسان يفيض من التجلي الإلهي يشعره بالرضوان ويرفعه بالرؤية.

وبديهي أن المتاع الثاني أكبر من الأول، كما قال -جل شأنه-:

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾

(التوبة: ٧٢)

ولكن هل هناك فواصل -في هذا الكيان البشري- بين الإحساسين أو أن الإنسان بأجهزته المادية والمعنوية يذوق الخير والشر جميعًا؟

إن اللذة والألم قوانين إنسانية صارمة فلم الطعن فيها؟

ولو فرضنا أن الجنة محل الكرامة الإلهية، لكفاها ذلك، ولاحترمناها من أجل هذه النسبة! ولا يأبى الكرامة إلا لئيم، فكيف -وهي إلى جانب ما وصفناه- تلبية لحاجة طبيعية يحسها كل إنسان، حاجة ذلك البدن الذي يضيره الحرمان، ويضنيه القل والذل، حاجة ذلك البدن الذي يكره الجوع والعطش والعري والهوان.

أمن أجل فكرة خيالية نجيء إلى مئات الآيات الصريحة الواضحة، فنحاول صرفها عن ظاهرها والتمحل في تأويلها وإفساد الآثار التربوية المقترنة بها؟!





﴿ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾

(الأنعام: ١٥)

ماذا يبقى من آيات القرآن بنجاة من التأويل والإبطال إذا تمت هذه المحاولة؟!

إن الله وجه إلى نبيه هذا الأمر ووصف أنبياءه الكرام بأنهم ﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴾

(الأنبياء: ٩٠)

ووضع أمام أبصار البشر كلهم هذا الترهيب

﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾

(آل عمران: ١٨٥)

فهل بعد ذلك نسمع لقول امرئ يرفض عبادة الرغبة والرهبة ويزعم أنه لا يخاف من النار ولا يحب الجنة، وأنه -إن عبد- فإنما يعبد ابتغاء وجه الله؟!

ما هذا اللغو؟ وهل الوجوه الناضرة بنظرها إلى الله تظفر بذلك في قعر جهنم، أم تظفر بذلك في حدائق الجنة؟

قال لي أحدهم: إن من الخساسة أن تعبد الله منتظرًا أجرًا. فقلت: من العبودية أن تستبشر بفضل الله، وأن توجل من عقوبته، وأن تعرف قدرك وتلزم حدك! أين تريد أن تضع نفسك؟

إن الله قال عن نبيه إبراهيم:



﴿ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾

(العنكبوت : ٢٧)

فهل أنت فوق الأنبياء استغناء عن الأجر الإلهي؟

وقال عن عباده المؤمنين :

﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴾

(الأحزاب : ٤٤)

ووصف عاقبة الصادقين المضحين بأنفسهم في سبيل ربهم فقال :

﴿ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ﴾

(الحديد : ١٩)

فهل أنت في مكانة أخرى غير ما أعد الله للشهداء والصالحين، مكانة الزاهد في أجر أو الرافض له؟ ما هذا الغرور؟

لقد وصف الله أولي الألباب بأنهم :

﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾

(آل عمران : ١٩١)

فهل يرفض أن يكون من أولي الألباب إلا البُلْه؟

ولقد أهاب الله بخلقه أن يسارعوا إلى جنة





﴿ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ﴾

(آل عمران : ١٣٣)

فهل يكره أن ينتظم في عداد المتقين إلا الحمقى ؟

. . . إن الجنة وعد الله لعباده فنعما هي وشكرًا لمن أعدها للمتقين، وهنيئًا لمن يصير إليها، يمرح في بحبوحتها ويسعد بربه الذي طالما صلى وصام من أجله ! !

إنه في هذه الجنة يشهد من كان يعبده بالغيب، ويتلقى فضله في قلبه وعلى بدنه، لذات مادية معنوية متشابكة لا انفصام بينها .

﴿ وَإِذَا رَأَيۡتَ ثَمَّ رَأَيۡتَ نَعِيمٗا وَمُلۡكٗا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَٰلِيَهُمۡ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضۡرٞ وَإِسۡتَبۡرَقٞۖ وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٖ وَسَقَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ شَرَابٗا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمۡ جَزَآءٗ وَكَانَ سَعۡيُكُم مَّشۡكُورًا ﴾

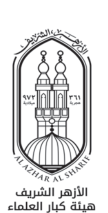
(الإنسان : ٢٠ - ٢٢)

ونحن نلفت نظر المفسرين ألا ينخدعوا بما شاع في الديانات الأولى من أوهام أو بما نسب إليها من أفهام فإننا ورثنا الكتاب الذي :

﴿ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ ﴾

(فصلت : ٤٢)





١٢- ماذا عن القضاء والقدر؟ وكيف نوفق بين الآيات التي تدل على أن الإنسان مختار، والأخرى التي تدل على أنه مجبر؟

يقول الله -تعالى- مبينًا عن حكمته في خلق العالم:

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾

(هود: ٧)

أي إن هناك اختبارًا كبيرًا مفروضًا على الناس يتحقق بعده مصيرهم! ما هذا المصير؟ يقول -جل شأنه- في آية أخرى:

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى ﴾

(النجم: ٣١)

هناك مسيء ينتظره العقاب، ومحسن ينتظره الثواب!

وتلك عدالة لا مطعن فيها! بيد أن بعض الناس يقول: هذا الامتحان مزور، وهذه النتائج مغشوشة والذي حدث أن الله هيأ للجنة أناسًا وأجرى الأمور كما شاء وستر مشيئته وراء فصول هذه التمثيلية الهازلة!!

الله يقول: إنه أرسل للبشر رسلًا يدلونهم على الصراط





المستقيم، وقبل أولئك المرسلين منحهم عقولًا يحسنون بها التفكير ويستطيعون بها الاختيار، وقال لهم: إني أقطع بهذا كله أعذاركم أن تقولوا يوم القيامة

﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾

(الأعراف: ١٧٢)

أو تقولوا:

﴿إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾

(الأعراف: ١٧٣)

لن يقبل من أحد كلام بعد هذا البيان! ومع ذلك يجيء أناس معتوهون يقولون: لا شيء إلا الله لا عمل إلا الله، أصابعه وراء كل شيء، وبقي أن يقولوا: ما في الجبة إلا الله، لا موجود غيره، نحن وهُم ما نصنعه وهْم!!

وأعرف أن وراء هذا التماوت وإنكار الإرادة البشرية والقدرة البشرية من يزعم التقوى ويدعي التصوف، ولقد ظل أولئك يتماوتون حتى ماتوا أدبيًا، وتحولوا إلى دواب يمتطيها المستعمرون، ويذللونها لمآربهم!

بحثت عن السبب في هذا الكذب، فوجدته أحيانًا رغبة البعض في أن ينحرف ثم يرمي بالتبعة على القدر القاهر!

ووجدته أحيانًا أخرى سوء الفهم لآيات القرآن الكريم، وجنون الجدل الذي مس بعض العلماء ثم نضح على جماهير الغوغاء.



وربما نشأ هذا التعلل المردود عن الخلط بين مواطن الاختيار الحق ومواطن الجبر القاهر، فإن الإنسان يحيا بين جبر واختيار في كيانه الداخلي وفي حركاته الخارجية! إن قلوبنا تدق دون استئذان وتمضي في أداء وظيفتها دون تدخل من إرادتنا، أفكذلك ألسنتا حين تتكلم؟

وقد يكون بعضنا أبيض الجلد والآخر أسوده! يسأل عن هذا التلوين كما يسأل الإنسان عندما يحسد ذا نعمة أو يزدري ذا عاهة؟

وندع هذه النماذج للقدر الظاهر والاختيار الحر، ونسوق أمثلة مما تشترك فيه الإرادة الإنسانية مع الإرادة الإلهية، فإن هذا الاشتراك هو -غالبًا- المهرب الذي يلجأ إليه الجبريون ويسيئون فيه تفسير النصوص.

إننا نستغل الكهرباء في بيوتنا للإنارة والإذاعة والتبريد والتسخين، فتصور ساكنًا جاءه المحصل يطلب منه ثمن ما أفاد من كهرباء، فقال له: إن التيار مر في الأسلاك من عندكم، والمصباح عندي لا يمكن أن يضيئ من ذاته ولو بقي دهرًا! يقول له المحصل: ماذا تقصد؟ يقول: لا أدفع ثمن شيء أنتم السبب الأول فيه! يقول المحصل: إنك تحرك المفاتيح فتسمع الإذاعة، وتنير المنازل ... إلخ يقول له الساكن: لولا التيار الذي أرسلتموه ما تم شيء، هكذا يقول بعض الناس لله: لولا إرادتك ما كان شيء، فلماذا أحاسب؟

وتصور فلاحًا -كما قلت في كتاب لي- زرع حشيشًا أو





أفيونًا، أو أي نبت مخدر، ثم وقف أمام القضاء يدافع عن نفسه يقول: كيف أحاسب على ما زرع الله؟ صحيح أني وضعت بذرة تافهة، لكن من الذي نماها وحملها ثمرها؟ إنه القائل:

﴿ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴾

(الواقعة: ٦٤)

كثير من الناس يعالج قضاياه الدينية بهذا المنطق.

نحن نعلم أن الإنسان إذا أراد الذهاب إلى المسجد أو إلى الخمارة بقي قلبه يدق بقدر الله، وبقي جهازه العصبي يصدر أوامره إلى الأقدام لتتحرك بقدر الله، وبقيت الأرض دون خسف ولا زلزال باسم الله! فهل معنى ذلك أن الله هو الذي دفع هذا إلى المسجد دفعًا ودفع ذلك إلى الخمارة دفعًا.

كلا كلا! إن للإنسان إرادة حرة، بها كلف، وبها صح اختياره، وبها تم جزاؤه وكون الله أعانه على ما أراد لنفسه، أو أنضج له ما بذر في أرضه، أو أمده بالتيار الكهربي الذي أنار بيته لا ينفي مسئوليته التامة عما فعل.

الإرادة ميزة محققة مؤكدة في الكيان الإنساني، بها حمل أمانة التكليف، وبها تميز عن الجماد الأصم والحيوان الأعجم، وبها يعلو أو يهوي ويشكر أو يكفر!

وعندما يتجه المرء -بمحض اختياره- إلى الإحسان والإساءة فإن تيار الإرادة المبعوث في أرجاء الوجود طيع بين أصابعه، إن شاء أضاء فمشى في النور، أو أطفأ فخبط في





الظلام وآيات القرآن تؤكد هذه الحقائق، ويجب أن نعلم أن القرآن يفسر بعضه بعضًا ويصدقه ويكمله!

إذا قال -تعالى- :

﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَمَا يَعۡلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَۚ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡبَشَرِ﴾

(المدثر : ٣١)

لنسأل أنفسنا: من الذين يشاء الله إضلالهم؟ ولنسمع الإجابة من القرآن نفسه:

﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ وَيَفۡعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾

(إبراهيم : ٢٧)

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ كَٰذِبٞ كَفَّارٞ﴾

(الزمر : ٣)

﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ مُّرۡتَابٌ﴾

(غافر : ٣٤)

ليس الأمر إذن لي عنان رجل صالح كي يتعرض لعذاب الله، لأن الله شاء إضلاله وتعذيبه، كلا! وحاشا للبر الرحيم، العدل الكريم أن يفعل ذلك.

هذا امرؤ اتجه إلى الشر فدفعته الأقدار في طريقه الذي اختاره، وهل يجني العنب من بذر الشوك؟

وكلما أوغل الشرير في الطريق زاد سمك الغشاوة المضروبة على بصيرته، فيظلم القلب ويعجز أهل الأرض





عن إنارته

﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾

(المطففين : ١٤)

وهكذا يصنع الله بالمجادلين في آياته، المستكبرين على الحق:

﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾

(غافر : ٣٥)

الأساس أن هذا الذي شاء الله إضلاله، أضل نفسه أولًا، فأتم الله له مراده كما قال:

﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾

(الصف : ٥)

وكما قال في موضع آخر

﴿ وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾

(النساء : ١١٥)

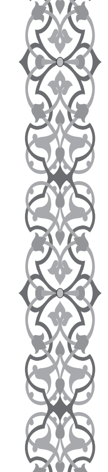
ومن السفاهة الظن بأن الله أزاغ طالب هدى أو أضل من اتبع سبيل المؤمنين!

وكما يشاء الله إضلال هؤلاء يهدي إلى الحق من ابتغاه ونشده:

﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴾

(محمد : ١٧)



وقال تبارك اسمه:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ﴾

(يونس: ٩)

وقال:

﴿ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ﴾

(التغابن: ١١)

وقال:

﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾

(الرعد: ٢٧، ٢٨)

إن المشيئة الإلهية ليست رمزًا للفوضى، وعندما يقول الله:

﴿ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ﴾

(الزمر: ٣٦، ٣٧)

فالأمر كما شرحنا وكما شرحته آيات أخرى مثل:

﴿ قُلْ مَن كَانَ فِى ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا ﴾

(مريم: ٧٥)





أي يزيده حيرة وعمى فيستحيل أن يعينه أو ينقذه أحد .

﴿ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ﴾

(مريم : ٧٦)

فيستحيل أن يضرهم أو يتسرد بهم أحد بعد هذا العون الأعلى. حيث يكون التكليف الإلهي تكون الإرادة الحرة، وتكون المسئولية الخلقية والجنائية في الدنيا والآخرة !

فإذا انعدمت الإرادة لسبب ما فلا مسئولية البتة، وكيف يكلف الإنسان بما لا يطيق والله سبحانه يقول :

﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ﴾

(البقرة : ٢٨٦)

قال لي أحدهم، كيف يكون للإنسان اختيار وإرادة الله نافذة في خلقه جميعًا ؟ قلت : إن الله فاوت بين خلقه، فهناك فارق بين الجدار والحمار والإنسان ! الجدار لا يحس والحمار لا يعقل، والإنسان يحس ويعقل، وله ميزة في تكوينه تجعل له معاملة أخرى غير معاملة الجدار والحمار.

إن معاملتي لسائق السيارة غير معاملتي للسيارة نفسها، الفارق واسع بين القائد والمقود والراكب والمركوب. والمساواة بينهما في التكليف حمق.

وذكر لي آخر قوله -تعالى- :





﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾

(الأنعام: ١٢٥)

وقال: أليست هذه الآية نصا في سبق الهداية الإلهية والإضلال الإلهي؟ قلت له: أنت واهم تدبر ختام الآية الكريمة تجد مفتاح المعنى الذي غاب عنك

﴿يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾

(الأنعام: ١٢٥)

إن الرجس الذي خنق صدورهم نشأ عن عدم إيمانهم، فلما رفضوا الإيمان وغصت به حلوقهم جوزوا بهذا الضيق والحرج، أما الذين رضوا بالحق واستراحوا إليه فقد استحقوا الهداية العليا وكوفئوا بشرح الصدر.

ذلك والاختيار بين النهجين يصحب المرء في كل يوم، بل في كل لحظة وهذا هو السر في أننا نطلب من الله الهدى في صلواتنا اليومية نحو عشرين مرة بالليل والنهار إن ظروفا هائلة تحيط بنا لا تعرف إرادتنا ولا قدراتنا ما تصنع بإزائها، وما أشبه الإنسان بزورق هش الصنع، يعوم في بحر لجي يغشاه موج من فوقه سحاب هنا يتشبث الإنسان بالتوفيق الإلهي ويسأل ربه النجاة.

ومن العقل أن نميز بين الأقدار التي تحيط بنا وتتحكم





فينا ، والأعمال التي طولبنا بها ونسأل غدًا عنها !

وأرى أن إنكار الاختيار البشري فرار من وظائف العبودية ، واتهام لصفات الربوبية ، وهذه جريمة ، ما الذي نحاوله بهذا المسلك ؟ يقول الله –سبحانه– :

﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾

(يونس : ٢٦)

ثم يقول :

﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةِۭ بِمِثْلِهَا﴾

(يونس : ٢٧)

ثم يقول عن الجزاء الأخير :

﴿هُنَالِكَ تَبْلُواْ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ ۚ وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾

(يونس : ٣٠)

فأين الظلم أو الجبر في هذا الصنيع ؟








١٣- ما دور المسجد في الإسلام؟

﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴾

(النور: ٣٦)

أحيانا أتصور أن الرفع هنا ليس للدعائم والجدران إنما هو للساحات الطهور التي تخصصت للركع السجود، فبعد أن كانت أرضًا عادية يغشاها أي إنسان أضحت أرضًا لا يدخلها إلا متوضئ، وبعد أن كانت لأي غرض عادي أضحت همزة وصل بين الناس ورب الناس، ومهادًا للمعراج الروحي الذي ينقل البشر من مآربهم القريبة إلى مناجاة الله وتسبيحه وتمجيده!

أليس هذا ارتقاء معنويًا للأرض نفسها؟ أحسست ذلك وأنا أطالع ما جاء في السنة المطهرة أن رسول الله ﷺ دخل ذات يوم المسجد، فإذا هو برجل من الأنصار يقال له: أبو أمامة فقال: يا أبا أمامة، ما لي أراك جالسا في المسجد في غير وقت الصلاة؟ قال هموم لزمتني وديون يا رسول الله! فقال له: «ألا أعلمك كلمات! إذا قلتهن أذهب الله عنك همك وقضى دينك؟ قال: قلت: بلى يا رسول الله.

قال: قل إذا أصبحت وإذا أمسيت اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن، وأعوذ بك من العجز والكسل، وأعوذ بك من الجبن والبخل وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال





.. فقلت ذلك فأذهب الله عني غمي وقضى ديني». [سنن الترمذي]

هذا رجل أحرجته الأيام، وبدل أن يذهب إلى بيت واحد من الأغنياء يستجديه، ويرقب الفرج عنده على نحو ما قيل:

يسقط الطير حيث ينتشر الحب وتغشى منازل الكرماء!

ذهب إلى بيت الله يرجو جداه، وينتظر نداه! فلم يخب سعيه، ولم يطل همه..! لقد نفعته كلمات تعلمها من صاحب الرسالة غيرت نفسه وحياته.. وإذا كان الرسول قد استغرب وجود الرجل في المسجد في غير وقت صلاة فإنه عزم على المسلمين كافة أن يثوبوا إلى المسجد وقت الصلاة وقال: «إن صلاة الجماعة أفضل من صلاة الفرد بسبع وعشرين درجة» [صحيح البخاري بلفظ مقارب]

وذلك أنه إذا توضأ فأحسن الوضوء ثم خرج إلى المسجد، لم يخط خطوة إلا رفعت له بها درجة وحطت عنه خطيئة، فإذا صل لم تزل الملائكة تصلي عليه ما دام في مصلاه، تقول: اللهم صل عليه اللهم ارحمه، ولا يزال أحدكم في صلاة ما انتظر الصلاة.

والواجب أن تتوطد صلة المؤمن بالمسجد، وأن يكثر التردد عليه صباحًا ومساءً، بل ينبغي أن يتعلق به قلبه وأن يزداد له حبه.

قال عبد الله بن مسعود: لقد رأيتنا وما يتخلف عن الصلاة إلا منافق قد علم نفاقه أو مريض! إن كان المريض ليمشي






بين الرجلين حتى يأتي الصلاة! وقال: إن رسول الله ﷺ علمنا سنن الهدى، وإن سنن الهدى الصلاة في المسجد الذي يؤذن فيه، قال عبد الله: وما منكم من أحد إلا وله مسجد في بيته، ولو صليتم في بيوتكم وتركتم مساجدكم تركتم سنة نبيكم، ولو تركتم سنة نبيكم لكفرتم.

وجمهور الفقهاء يرى الجماعة في المسجد سنة مؤكدة، ولا ريب أن التجمع نزعة أصيلة جادة في تعاليم الإسلام، وأن الجماعة من شعائره العظمى.

والإسلام يحارب بذلك المتدين المنهزم الفار من الحياة العاجز عن مواجهتها، كما يحارب بعض المتدينين الذين يحسبون أنفسهم أزكى وأتقى، وأن مخالطة الناس تنقصهم! فهم يؤثرون العزلة ويتهمون الغير، ويغطون كبرًا في صدورهم ما هم ببالغيه. ولعل أولئك الذين عناهم ابن عباس لما سئل عن رجل يصوم النهار ويقوم الليل، ولا يشهد الجماعة ولا الجمعة؟ فقال: هذا من أهل النار!!

إن رسالة المسجد في الإسلام حشد المؤمنين في صعيد واحد، ليتعارفوا ويتحابوا، ويتعاونوا على البر والتقوى ويتدارسوا ما يعنيهم من شئون!!

وهذا التلاقي المنشود ليس حشر أجساد، إنما هو اندماج الفرد في المجتمع على أساس من الحب وطلب مرضاة الله ﷻ، وعلى كل مسلم أن يرتفع إلى هذا المستوى، وأن يقتل نوازع الأنانية إذا حدثته بالعزلة لأمر ما فقد جاء في الحديث:





«ثلاث لا يغل عليهن قلب امرئ مؤمن -أي لا يحقد أو يخون- إخلاص العمل لله، والمناصحة لأئمة المسلمين، ولزوم جماعتهم فإن دعاءهم محيط من ورائهم» [مسند البزار] أي إن بركة الله على الجماعة تشمل الكل وإن كان بينهم من هو دونهم كما جاء في حديث آخر: «يد الله على الجماعة ومن شذ شذ في النار». [سنن الترمذي]

ومن رسالة المسجد خلق نظام الصف، وتعويد المسلمين عليه، والغريب أن أمتنا أبعد الأمم عن احترام نظام الصف والخضوع له.. مع ما ورد في تنظيم الصفوف بالمساجد من توكيد وتشديد.

وتأمل في هذا الحديث عن أبي مسعود: كان رسول الله ﷺ يمسح مناكبنا في الصلاة يقول: «استووا ولا تختلفوا فتختلف قلوبكم، ليليني منكم أولو الأحلام والنهي ثم الذين يلونهم». [صحيح مسلم]

وفي رواية: «أقيموا الصفوف وحاذوا بين المناكب، وسدوا الخلل ولينوا بأيدي إخوانكم ولا تذروا فرجات الشيطان ومن وصل صفًا وصله الله، ومن قطعه قطعه الله»!! [سنن أبي داوود]

لقد قرأت في حرب فارس أن صفا من المجاهدين كان يعبر نهرا، فسقط كوز أحد المجاهدين فتريث الصف كله حتى عثر الجندي على ما سقط منه!! إنهم يتحركون بروح الجماعة، ولا يتصرفون كأنهم عقد انفرطت حباته!



وكم يشعر المسلم بالأسى وهو يرى أمته في زحام الحياة تتحرك بروح القطيع، لا يهتم المرء إلا بنفسه ومصلحته!! هذا الشعور الهابط يقتل العشرات في مناسك الحج، لأن نظام الصف، والإحساس بالغير مفقود عندنا، فالمسجد لا يؤدي رسالته!! ومن رسالة المسجد رفع المستوى الثقافي للأمة، وذلك عن طريقين: الأول تدبر ما يتلى من القرآن في الصلوات الجهرية وخطب الجمعة، والقرآن كتاب يتحدث في العقائد والعبادات والأخلاق والقوانين والشئون المحلية والدولية ويصف الكون ويسرد التواريخ مثلما يتحدث عن الله وصفاته وحقوقه سواء بسواء.

وقد كان ذلك المصدر الأول للمعرفة عند السلف، إذ إن سليقتهم اللغوية مكنتهم من الاستعداد المباشر من آيات الله والحق أن الذين أنصتوا للرسول الكريم وهو يتلو كتابه بلغوا شأوًا لا يضارع من السمو الفكري والتربوي، فليس عجبا أن ينطلقوا مشاعل هدى في أرجاء الأرض وينقلوها من الظلمات إلى النور.

أما الطريق الثاني لتثقيف الأمة فهو الدروس التي انتظمت في ساحات المساجد، تتناول جميع العلوم، بل إن الشعر كان يلقى في المسجد، وكان الصحابة يستمعون إلى حسان بن ثابت وهو ينشد قصائده السياسية!

ومعروف أن المدارس الفقهية الكبرى كانت في المساجد وأن الأئمة العظام كانوا يلقون تلامذتهم فيها، والفقه الإسلامي





يحتوي على كل ما يهم البشرية من المهد إلى اللحد.

ولما كنت مديرًا للمساجد وضعت لأيام الأسبوع الستة غير الجمعة ستة دروس في التفسير والحديث والفقه والتاريخ والعقيدة والأخلاق، أما يوم الجمعة فحسبه الخطبة، وأعددت لذلك كراسات تحضير تراجع بعناية.

بل وضعت لتعمير سيناء خطة تقوم على إنشاء مستوطنات، أساسها ثلاثة رجال: إمام مسجد، ومهندس زراعة، وضابط جيش، وتركت اختيار الأماكن للمتخصصين.

وكان رأيي أن تبنى المساجد في المدن والقرى على أساس مسجد واحد كبير لكل ثلاثة آلاف من السكان.

إن المسجد كان القلعة الروحية التي ينطلق منها المجاهدون لمقاومة كل غزو، وقد قاوم الجامع الأزهر الفرنسيين منذ قرنين حتى احتلوه بخيلهم، وقاوم الإنجليز أوائل هذا القرن، وكان يستقبل الأحرار من أقباط مصر الذين يحاربون الاستعمار، ويؤازرون إخوانهم المسلمين.. وقد روى التاريخ كيف أن امرأة من المصليات سمعت الخطيب يتحدث عن الجهاد -أيام الحروب الصليبية- فقصت شعرها، وأرسلت الضفائر إلى الإمام مقترحة أن تكون قيد جواد لأحد المجاهدين مما جعل المسجد يضج بالحماس، وأغرى الرجال بالتفاني.

هل انهزمت أوروبا في حملاتها الأولى إلا بهذه المشاعر، وهل تراجع الاستعمار الجديد إلا بالروح نفسها؟





١٤- لماذا كانت الصلوات خمسا في اليوم؟ وما شكل الصلاة المقبولة؟

كما يحتاج الجسم الناشط إلى وجبات غنية تمده بالحرارة، وتجدد ما بلي من خلاياه، وتحفظ عليه عافيته، تحتاج النفس الإنسانية إلى وجبات أخرى تعينها على التحليق، وتمنعها من الإسفاف، وتستنقذها من أمواج الفتنة والذهول، وشتى الأهواء والأقداء!

إن الإنسان -بجواذب من طبعه- يحب أن يذكر نفسه وينسى ربه، يحب أن يضمن مصلحته وحدها ولا عليه أن يضيع الآخرين، يحب أن يأخذ ولا يعطي، وإذا أخذ فالشكر ثقيل عليه، وإن شكر فكلمات خفيفة .. ثم لا حق بعد لأحد!!

وقد فرض الله الصلاة على الناس طهرًا من هذه الدنيا، وتربية على جميع الفضائل التي تصح بها إنسانيتهم، وتكمل بها عبوديتهم، وتتم بها رسالتهم في هذه الحياة، وهل خلقوا إلا لعبادته سبحانه؟

وكون الصلوات عددًا معينًا ككون السعرات الحرارية التي يفتقر إليها الجسم عددًا معينًا! لا تتحقق الثمرات المطلوبة إلا بهذا المقدار، ويقع الخلل المادي والأدبي بمقدار هنا وهناك!

وتنظر إلى حقيقة الصلاة التي شرعها الله للناس، يقول





الفقهاء عن هذه الصلاة : إنها أقوال وأفعال مبدوءة بتكبير الله تبارك اسمه ، ومختومة بالسلام على عباد الله جميعًا .

قالوا : أما الأفعال فقد استوعبت صور التحية التي كان يتقدم بها الناس إلى رؤسائهم وعظمائهم بعد تجريدها من المقاصد الرديئة ! الوقوف الخاشع ! القعود المؤدب ! الركوع والسجود اللذان هما نهاية الاستكانة والاستسلام !

فأفعال الصلاة أن نقوم لله قانتين ، وأن نركع ونسجد له معظمين ، وأن نقعد مخبتين قائلين له : إن هذه التحيات التي أديناها ، وكل عمل صالح نقوم به في حياتنا هو لك وحدك يا ربنا الكبير ! !

أليس ربنا أهــلًا لهذه التحيات اللطيفة تقدمها له -سبحانه- صباحًا ومساء ؟

بلي ! وهو أهل التقوى وأهل المغفرة .. لذلك يقول الله لكل مسلم :

﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴾

(هود : ١١٤)

وربما أحس المرء بكلفة في أداء هذا الواجب ! واستثقل تكراره ، ألم نقل : الإنسان قليل الشكر ؟ لا بأس عود نفسك

﴿ وَٱصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾

(هود : ١١٥)





وتكتنف أفعال الصلاة أو تتخللها أقوال كثيرة والمطلوب أن يكون المصلي حاضر الوعي حين يتكلم فإذا بدأ صلاته قائلا: الله أكبر، فمعنى ذلك أنه في موقف جديد يجمعه مع الله فلينتبه!

ويسمي الفقهاء هذه التكبيرة تكبيرة الإحرام، كأن الإنسان حرم على نفسه الانشغال بشيء آخر لأنه شرع في مناجاة الله، والالتفات إليه وحده.

والأقوال التي يرددها المصلي كثيرة، لعل أهمها تلاوة أم الكتاب، وقراءة هذه السورة ليس اختيارًا في الحفظ! فإن كلماتها تمثل لقاء حيًا بين الله وعبده -العبد يتكلم والسيد يجيب!

في الحديث القدسي: «قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، فنصفها لي ونصفها لعبدي ولعبدي ما سأل...

فإذا قال العبد:

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

قال الله -عز وجل-: حمدني عبدي!

وإذا قال:

﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾

قال الله: أثنى عليّ عبدي

وإذا قال:

﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾

قال: مجّدني عبدي..







وإذا قال:

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾

قال: هذا بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل.

وإذا قال:

﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾

قال: هذا لعبدي، ولعبدي ما سأل. [صحيح مسلم] أي: أعطيته ما طلب.

وتكرار هذه المعاني حق، فإن نعم الله مترادفة توجب تكرار الشكر، وذكر الله بصفاته العلا، وأسمائه الحسنى ثناء صادق ومدح مستحب، والشعور بيوم الدينونة وملكه القائم على كل نفس بما كسبت يكفكف الغرور بالدنيا.

وتعهد المصلي أن يعبد الله وحده، ويستعين بالله وحده هو لب التوحيد، فإذا وفى المصلي بعهده، وسأل ربه من رفده منحه ما يطلب، وأفضل ما يطلب الإنسان هدى يقيه الانحراف، ورضا يقيه الطرد، ونعمة تقر بها عينه، وسدادا يقيه الحيرة..! الظفر بذلك سعادة الدنيا والأخرى!

ومع فاتحة الكتاب يقرأ المرء ما يشاء من الكتاب نفسه وفي هذه الزيادة معرفة أكثر بالوحي الأعلى، وما فيه من تبصرة بشئون الحياة كلها.

ثم يركع المصلي مسبحًا ربه العظيم، فكم من سكان



الأرض يشرك به أو يجحد وجوده، أو يجهل ما ينبغي له من نعوت الكمال، أما المسلم فهو يخالف أولئك جميعًا وينزه ربه عما لا يليق به من نقائص. وهو موقن بأن تنزيهه هذا قد صعد إلى الله الجدير به ولذلك يرتفع من ركوعه قائلا: سمع الله لمن حمده، أي استجاب الله لمن أثنى عليه وحمده.

وكان رسول الله ﷺ يرفع من ركوعه أحيانًا ويقول: «اللهم ربنا لك الحمد ملء السموات وملء الأرض وملء ما بينهما من شيء بعد، أهل الثناء والمجد، أحق ما قال العبد، وكلنا لك عبد لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد»!! [سنن أبي داوود]

ومعنى الجملة الأخيرة أن المرء لا ينفعه عند الله ما نال في الدنيا من حظوظ الرفعة والنعمة، فليس في ذلك دليل على الرضوان إلا على ﴿ ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ وَفَرِحُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴾

(الرعد: ٢٦)

ثم يهوي المصلي ساجدًا يسبح اسم ربه الأعلى، ومع كل ركوع سجودان! والإنسان يكون في أزكى الأحوال وأشرفها عندما يضع جبهته على الأرض بين يدي ربه، فليدع بما شاء. وكان النبي ﷺ أحيانًا يقول في سجوده: «سجد وجهي للذين خلقه وصوره وشق سمعه وبصره، تبارك الله أحسن الخالقين» [صحيح مسلم] أو «سبحان ذي الملكوت



والجبروت والعظمة» [مسند البزار] وهذه الحركات كلها يكتنفها التكبير بدءًا أو ختامًا.

وفي القعود الأول أو الأخير يذكر المرء لربه أن كل ما سبق من أفعال وأقوال تحيات لوجهه الكريم، فهو يقول: التحيات لله، والصلوات الطيبات، ثم يلقى السلام على صاحب الرسالة العظمى لقاء ما علم وربى وأرشد، وكأن هذا السلام إشارة إلى أنه الأسوة الحسنة في إقام الصلاة، وسائر الشرائع التي جاء بها! ثم يرسل سلاما آخر على نفسه وعلى عباد الله الصالحين!

ما أحلى هذه الكلمات كلها، وما أشرف الصلاة التي يكلف المسلم بأدائها .. والمهم أمران: أحدهما عقلي والآخر قلبي! أما العقلي فيجب أن يعلم ما يقول، ويعرف ما يناجي ربه به فقد جاء في السنة أن المرء لا يكتب له من صلاته إلا ما عقل منها! أما أن يكون سكران بخمرة الدنيا وشواغلها، ثم يقف تائها لا يدري ما يتكلم به فهذا هبوط وضياع

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ ﴾

(النساء: ٤٣)

أما القلبي فإن الصلاة تورث الخشوع والأدب والخشية، وهي معراج روحي يرقى بصاحبه إلى الملأ الأعلى، إنها إن





أقيمت كما شرع الله -توبة كاملة تمحو الخطايا محوًا، وتطهر النفس قال عليه الصلاة والسلام: «أرأيتم لو أن بباب أحدكم نهرًا يغتسل فيه كل يوم خمس مرات، ما تقولون: أيبقي ذلك من درنه شيئا؟» قالوا: لا يبقي ذلك من درنه -قذاه- شيئا! قال: «فذلك مثل الصوات الخمس يمحو الله بها الخطايا». [صحيح البخاري]

والأساس أنها تعصم من الخطايا وتحول دون مواقعتها كما قال تعالى:

﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾

(العنكبوت: ٤٥)

بيد أن البشر ضعاف، وقد تهي إرادتهم أمام إغراء ما، ويزلهم الشيطان فهل ييأسون من تسام ومتاب وعود إلى الله؟ كلا، فليفزعوا إلى الصلاة فهي تنقي أرواحهم وتشد عزائمهم إلى الصراط المستقيم، المسلم لا يذهب إلى كاهن يأخذ بيده، فليس الكاهن خيرًا منه، ولو فرضنا أنه خير فما ينفع إلا نفسه ولا مفزع إلا إلى الله.



١٥ - ماذا يرمز إليه الوضوء؟ ولماذا لا تصح الصلاة إلا به..؟!

نظرت إلى بعض الأشجار القريبة منا وكان غبار الجو قد كساها، وجعل أوراقها داكنة، فلم تثر انتباهي وخلفتها دون توقف.. وشاء الله أن تمطر السماء بعد قليل، وكان مطرًا غزيرًا، ومررت بالأشجار نفسها فكان منظرها عجبًا كانت خضرتها تزهو، والأوراق تحت أشعة الشمس تلمع! فقلت: ما أحسن النظافة، أبرزت الخلقة الطبيعية في جمالها الأصيل، وبعثت النفوس على الإعجاب.

كذلك جسم الإنسان، إن النظافة تجلوه وتزكيه، والجسم الإنساني أحوج من غيره إلى التطهير الدائم، لأن متاعبه لا تجيء من الغبار وحده، وإنما تجيء من إفرازات الجلد، والأعضاء ونفايات الأجهزة التي لا تهدأ حركتها، ولم أر نظامًا للتنقية والتطرية أدق من التشريع الإسلامي في احترام الجسم وإزالة القذى عنه، واستئصال ما يشينه واستبقاء ما يزينه.

والوضوء من شعائر الإسلام المطردة في الحياة الإسلامية، وهو من الوضاءة أي الحسن الباهر، ومعنى ذلك أنه فوق النظافة إنه تخليه وتحلية، والنظافة قد تعني إزالة الأوساخ وحسب!

كلمة الغسل في اللغة لا تعني إسالة الماء فقط، يقال:





غسلت السماء الأرض إذا كان المطر بالغ الشدة، وإذا فرض الإسلام غسل أعضاء معينة فهو يريد تدليكها بما يطهرها ولا يترك أثرًا منفرًا فوقها.

وقد أوجب الإسلام الوضوء كما فرض جملة من الأغسال التي تشمل الجسد كله! ونستطيع جعل الوضوء رمزًا لفلسفة الإسلام في تكريم الجسم الإنساني وإعزازه إذ إن هناك عقائد تعلن حربًا على هذا الجسم، وترى الارتقاء في إهماله وإنحافه والجور عليه، وذلك في زعمها لترقية الروح.

والواقع أن الإنسان معنى ومبنى، وقلب وقالب، وعزل المادة عن الروح صعب والمفروض أن يكون المعنى الشريف في مبنى نظيف، وأن يكون القلب الطيب في إهاب نفيس!

روى مسلم عن عمر بن عبسة -رضي الله عنه- قال: سألت رسول الله ﷺ: كيف الوضوء؟ قال: «أما الوضوء فإنك إذا توضأت فغسلت كفيك، فأنقيتهما، وغسلت وجهك، ويديك إلى المرفقين، ومسحت رأسك، وغسلت رجليك إلى الكعبين، خرجت من خطاياك كيوم ولدتك أمك»!

قال أبو أمامة: يا عمر بن عبسة، انظر ما تقول؟ أكل هذا يعطى في مجلس واحد؟

قال عمر: أما والله لقد كبرت سني، ودنا أجلي، وما بي من فقر فأكذب على رسول الله ﷺ، ولقد سمعته أذناي ووعاه قلبي من رسول الله.[سنن النسائي]

والواقع أن الجزاء المذكور ليس على مجرد الوضوء،



فإن الوضوء وسيلة إلى الصلاة، وهذي وذاك مظهران لإيمان حسن، ومسارعة إلى رضوان الله، فالثواب الوارد منظور فيه إلى جملة هذه الخصال المترابطة، وقد تأكد هذا المعنى من أحاديث كثيرة.

والوضوء وحده لا يصلح إذا كان الجسم بحاجة إلى تطهير تام، كما في حالة الجنب والحائض والنفساء، وقد أمر الإسلام بتتبع ما يلوث البدن حتى لا يبقى أي أثر لنجس، وكانوا قديمًا يستعينون ببعض الأعشاب والألياف لإدراك النظافة المطلوبة، وفي عصرنا توصل العلماء إلى مواد كثيرة يمكن استخدامها لتحقيق هذا الغرض!

إن المعلم كالطبيب، كلاهما يريد الكمال للإنسان، والطبيب في كشوفه وعلاجاته يتناول الجسم كله لا يستثنى منه شيئا، وكذلك فعل الإسلام وهو ينقي البدن ويجمله، إنه لم يتحرج من ذكر شيء مهم، وفي الحديث قال رسول الله ﷺ: «الفطرة خمس: الختان، والاستحداد -إزالة الشعر حول المواضع الحساسة- وقص الشارب، وتقليم الأظافر، ونتف الإبط». [صحيح البخاري]

أى إن من المحافظة على الفطرة السليمة -وهي جوهر الدين- أن يتعهد المرء بدنه بهذه الآداب.

ومن أطال شعر رأسه وجب عليه أن ينظفه ويسرحه ولا مانع من تعطيره، ففي الحديث: «من كان له شعر فليكرمه» [سنن أبي داوود]!!





ولا بد من غسل الفم وتعهد الأسنان ومنع الفضلات من التخلف بين الثنايا، إن الفم المتغير الرائحة بلاء على صاحبه، ومصدر أذى لأصحابه، وقد أسقط الإسلام صلاة الجماعة عن الأبخر!! كما ندب لمن أكل ثومًا أو بصلًا أو فجلًا أن يبتعد عن المجالس العامة، وتعاليم الإسلام في استعمال السواك كثيرة، ويمكن الاستعانة بالمعاجين التي تنظف الفم، وقد تغني مكان السواك.

والغريب أن الإسلام لم يكتف بالطهارات التي قررها، بل ضم إلى ذلك التزين الذي يصلح الهيئة، ويجلب الاحترام، وقد روى أبوداود والنسائي عن عائشة -رضي الله عنها- قالت: أومأت امرأة من وراء ستر، بيدها كتاب! إلى رسول الله ﷺ فقبض يده! وقال: ما أدري، أيد رجل أم يد امرأة؟ فقالت: بل يد امرأة! فقال لو كنت امرأة لغيرت أظافرك، يعني بالحناء -أي لظهرت حمرة الخضاب على الأظافر!!

وعن عائشة أيضا أن هند بنت عتبة قالت: يا رسول الله، بايعني، قال: لا أبايعك حتى تغيري كفيك كأنهما كفا سبع، أي وحش!

والتجمل شيء غير التبرج، التبرج إهاجة الغرائز الساكنة بصورة تميل بها نحو الإثم! أما التجمل فهو إبراز الجمال الطبيعي في إطاره العادي المعتدل، وجمال الأنوثة غير جمال الرجولة، والإسلام يرفض تشبه أحد الجنسين بالآخر، وليس معنى نهي المرأة عن التبرج أن تكون دميمة المظهر

أو كريهة الرائحة، كلا فلتكن حسنة الهيئة مع الاحتشام، ولتكن طيبة الرائحة دون تعطر صارخ!

قلنا: إن الوضوء من الوضاءة، أي الحسن والملاحة والإشراق! والحياة الإسلامية الأولى كانت آية في النظافة والارتقاء، فلما ساء معنى التدين وانحدر مستواه ظن البعض أن الهيئة الرثة من الدين وأن إهمال الجسم دليل على التقوى وطلب الآخرة! والحق أن الشكل الفوضوي دليل موضوع مشوش، وأن من أهمل حق بدنه لا يؤتمن على كثير من الحقوق.

أما نستحي -وقد أضاف الله الزينة إلى نفسه- أن ننأى عنها؟ ألم يجيء في الكتاب العزيز:

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾

(الأعراف: ٣٢)

إن الله يريد وضاءتنا فلم نريد نحن الدمامة والرثاثة؟!

إن الوضوء رمز إسلامي لكل أسباب النظافة والزينة، على أن يكون وراء ذلك بداهة فكر نظيف، وأدب رائق جميل، فيكمل الإنسان جوهرًا ومظهرًا وحقيقة وصورة!

والوضوء ليس شرطًا لذكر الله -سبحانه وتعالى-، فالمسلم يستطيع أن يذكر ربه في أوقاته كلها جنبًا أو طاهرًا، بل يستطيع أن يقرأ القرآن الكريم -فيما أرى- وتستطيع





الحائض ذلك والمؤمن لا ينجس أبدًا والجنابة عارض لبدنه يمكن الخلاص منه على عجل.

أما الصلوات المكتوبة كلها، فيستحيل الدخول فيها دون طهر، والوضوء كاف لمن قام به حدث أصغر، أما الحدث الأكبر فلا بد من الغسل.

وإنما اشترط ذلك حتى لا يتجوز المؤمن في شئون النظافة، ويتركها لأي عذر ينويه فما أسرع الناس إلى الترخص فيما لم يلزموا به حتمًا، وإذا كانت الصلاة من أركان الإسلام الخمسة، فإن النظافة تعد من الأركان لأنها تمهيد لا مناص منه للصلاة، ثم جاء تعبير القرآن بعد ذلك أعم وألطف إذ أمر باتخاذ الزينة عند الوقوف بين يدي الله

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾

(الأعراف: ٣١)

والنظافة خلق قبل أن تكون عادة تتبع الغنى أو الفقر، ومن كان شديد الحس بطهارة جسمه لن يعدم أية وسيلة تجعله تقيا وسيما، وكم من فقير نظيف، وغني ممجوج!





١٦ - ما حكمة الحج؟ ولماذا كان الطواف حول الكعبة وهي بناء من حجر؟

سمعت أحد الدعاة يقول: إن الله كلفنا بما نعقل فأطعنا، فأراد أن يبلونا بأفعال الحج ليرى: أنطيعه فيما لا نعقل أم نعصيه؟ قلت له: هذا كلام رديء، وأفعال الحج ترتبط بحكم لا ينكرها العقل، وقد شرحتها في موضع آخر ولا بأس من إعادتها هنا.

إن الأمم تغالي بكثير من ذكرياتها، وتقرن به مشاعر نفسية واجتماعية بعيدة المدى، وقد ربط النصارى بقبر المسيح وطريق الآلام -كما يقولون- وربط اليهود أنفسهم بحائط المبكى، وأسسوا عليه حقوقا ما أنزل الله بها من سلطان! فلماذا يستغرب من المسلمين أن يرتبطوا بأماكنهم المقدسة، ارتباطا -يبدو- عندما يدرس- أقرب إلى الرشد، وأبعد عن الوهم؟

الكعبة هي البيت الحرام الذي بني لتقام فيه وعنده الصلوات لله وحده، وقد قيل لإبراهيم وهو يؤسسه:

﴿لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾

(الحج: ٢٦)

وهذا المسجد الحرام -أعني الكعبة- هو أول مسجد بني في الدنيا لتوحيد الله، ونبذ الشركاء، وتمحيص العبادة لرب العالمين.





أليست لهذه الأولية حقوق ؟ بلى وطليعة هذه الحقوق ألا يشاد مسجد في العالم إلا اتجه إليه وشاركه غايته في التوحيد الخالص ! وكذلك من هذه الحقوق المقررة أن ينبعث كل قادر ليزور هذا المسجد الذي أصبح قبلته حيًا وميتًا !

هذه المعاني هي التي ذكرها القرآن الكريم في أثناء الحديث عن هذه الكعبة :

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴾

(آل عمران : ٩٦)

﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾

(آل عمران : ٩٧)

﴿ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ﴾

(البقرة : ١٤٤)

من أجل ذلك تنبعث الوفود من المشرق والمغرب لترى البيت الذي تصلي إليه، ولتطوف حوله طواف تقدير واحترام !

ماذا يقول الحجيج وهم يطوفون بهذا البيت ؟ يقولون : لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ! يقولون : «سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر» .



إنهم لا يعبدون البيت وإنما يعبدون رب البيت، والطواف كما أجمع العلماء -صلاة لابد لها من طهارة البدن ولابد فيها من خلوص القلب لله.

ومن زعم أن الكعبة كلها أو بعضها يضر أو ينفع فهو خارج من الإسلام.

ومن حق رب البيت أن يضع طريقًا لزيارة بيته، فإذا جعلها طوافا من سبعة أشواط فليس في الأمر ما يستغرب، ففي طول الدنيا وعرضها توضع طرائق شتى للاستقبالات والاستعراضات!!

وحكمة أخرى لا تقل جلالاً عن سابقتها، تفسر الطواف حول البيت العتيق، إن الأمة الإسلامية التي تبلغ ألف مليون من البشر، بدأت دعوات حارة على ألسنة الرسولين الكريمين اللذين توليا بناء هذا البيت! دعوة ملؤها الاستسلام لله، والرغبة في مد عبادته من الآباء إلى الأبناء إلى الأحفاد إلى قيام الساعة:

﴿ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ ﴾

(البقرة: ١٢٨)

كما أن هذين الرسولين الكريمين دعوا الله أن يجعل في هذه الأمة نبيا يعلم ويربي ويتلو آيات الوحي الصادق، فكانت بعثة النبي الخاتم بعد قرون طوال!

أهناك ذكريات تاريخية أعز من هذه الذكريات؟ فإذا لم يحج المسلمون البيت الذي بدأ عنده تاريخهم، فأين





يحجون؟ وإذا لم يقصدوا البيت الذي كان نبيهم دعوة مخبوءة في ضمير إبراهيم عند بنائه استجابها الله وباركها، فأين يقصدون؟

إن الكعبة بناء من حجر، ما يغليها أن تكون بناء من ذهب ولا يرخصها أن تكون من خشب، المهم هو المعنى الذي يحفها..!

رجل واحد هو في طاقته أمة، أحب الله من أعماق قلبه، وألقي في النار لحرصه على توحيده، وخاصم الملوك والجماهير لإعلاء هذه الحقيقة، وتنقل بين أرجاء رحبة من الأرض يدعو ويجادل، طوحت به سياحاته إلى هذا المكان النائي ليشيد على أنقاض الوثنية حصنًا للتوحيد، ويسأل ربه -وهو يبني- أن يجعل من عقبه أمة تحمي الحق وترفع رايته، أكان للناس عجبًا أن تهرع هذه الأمة بعدما تمخض عنها الغيب لتزور المسجد الذي وضع أبوها، وتهتف من حوله بشعار التوحيد؟

إن سيدنا إبراهيم دعا الأجيال لتزور بيت الله، وتوثق حبالها بالعقيدة التي أنشأته، ووقع في قلوب الألوف المؤلفة صدى هذا النداء، فأتت من كل فج تقول: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك!

فهل تتهم هذه الوفود الموحدة بأنها وثنية؟ أليست هذه السفاهة بعينها؟






إن بعض الناس لا يدري المعاني العظيمة التي تحف مناسك الحج، وقد يكون الحجاج أنفسهم من هذا القبيل!

نظرت إلى (المسعى) وهو يموج بحشود كثيفة تطوف بين الصفا والمروة، وسألت نفسي: إن هذا السعي بين الجبلين الصغيرين شرع لترسيخ عقيدة التوكل على الله، وإن وهت الأسباب المادية، فهل الساعون يعون ذلك؟

من قرون خلت كانت هذه البقعة يسودها صمت الوحشة والانقطاع، لا أنيس هنالك ولا عمران، جاءها إبراهيم -عليه السلام- بامرأته وابنه الرضيع، ثم قال: للأم الضعيفة: سأتركك هنا!

وتساءلت هاجر دهشة: تتركنا هنا أنا وإسماعيل؟ حيث لا زرع ولا ضرع، ولا دار ولا ديار؟ قال: نعم: قالت: آلله أمرك بهذا؟ قال: نعم.

- إذن لا يضيعنا!! وانصرف الأب لا يدري ماذا سيقع له ولا ما سيقع لأسرته، لقد نفذ ما أوحي إليه به وحسب!

ونفد الزاد والماء من هاجر، وجاءت الساعة الحرجة، وانطلقت الأم بين الربوتين الجاثمتين على صدر الوادي تبحث عن غوث للرضيع الذي يوشك أن يهلك.

وبعد أمد جاء الملك وفجر بئر زمزم، وحامت الطير حول الماء الدافق، وأحس الناس ما جد فأقبلوا على المكان يعمرونه!

إن ثقة هاجر في الله أثمرت الخير، ولم يخذلها الله





بعدما آوت إليه.. والتوكل على الله -مع ضعف الأسباب أو انعدامها- زاد يحتاج إليه المجاهدون، والمضطهدون، يعتمدون عليه في اليوم الكالح كي يسلمهم إلى غد رابح.

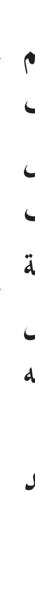
وقد خسر المسلمون معارك كثيرة، كانوا جديرين بكسبها لو استندوا إلى الله، ولكنهم خاروا لضعف يقينهم ثم هنوا في أرضهم!

هل يعي ذلك الساعون بين الصفا والمروة؟ وهل عرفوا عقبى التوكل عندما يمثلون الدور الذي قامت به أم إسماعيل وهي تتحرك جيئة وذهابًا بين الربوتين؟

قال التاريخ: واعترض الشيطان إبراهيم لما ترك أسرته بالوادي المقفر، يقول له: كيف تنفذ أمرًا فيه هلاك أهلك، لأن الله أمرك؟! فقذفه إبراهيم بحصيات التقطها من التراب، فكانت تلك سنة رمي الجمار فيما بعد!

إن مناسك الحج تنمية لعواطف المسلمين نحو ربهم ودينهم وماضيهم وحاضرهم ويكفي أنها تجمعهم من أطراف الأرض شعثًا غبرًا لا تفريق بين ملك وسوقة، ولا بين جنس وجنس.. ليقفوا في ساحة عرفة في مظاهرة هائلة، الهتاف فيها لله وحده، والرجاء في ذاته والتكبير لاسمه، والضراعة بين يديه، فقر العبودية ظاهر! وغنى الربوبية باهر! ومن قبل الشروق إلى ما بعد الغروب لا ذكر إلا الله ولا طلب إلا منه سبحانه.

إن الحج من الناحية الروحية إذكاء مشاعر، وتجديد







عاطفة ومن الناحية الاجتماعية فرصة ثمينة للتوجيهات الجامعة التي تكفل مصلحة المسلمين العليا.

ولكي ندرك ذلك ندرس كيف حج المسلمون في السنة التاسعة والسنة العاشرة للهجرة.

في السنة التاسعة رجع الحجاج وقد تلقوا تعليمات بقطع علاقاتهم مع العابثين بمعاداتهم، ومعاملتهم بالشدة بعدما فشل اللطف معهم.

وفي السنة العاشرة وضعت تقاليد إنسانية وآداب عامة تضمنتها الخطبة الجليلة التي ألقاها الرسول ﷺ في حجة الوداع.

فهل يسمع المسلمون شيئًا ذا بال عندما يحجون في هذه الأيام؟





١٧ - ما هي دار الحرب، وما هي دار الإسلام؟

يقصد بدار الإسلام جميع الأراضي التي يعمرها المؤمنون برسالة محمد ﷺ، العاملون بكتابه وسنته، المنفذون لشرائعه، والمنضمون تحت لوائه، ويقصد بدار الحرب جميع الأراضي التي يقطنها الكافرون بهذه الرسالة، المخاصمون لها، المعترضون لدعوتها.

قد تتسع هذه الدار فتشمل كل الأوطان التي غزانا منها الصليبيون القدامى، أي أوروبا كلها تقريبًا! وقد تتسع لتشمل كل الأقطار التي أغار منها التتار علينا، فوصلوا من الصين إلى فلسطين!، وقد تضم كتابيين، ووثنيين، وملاحدة!

وقد سميت هذه البقاع وأهلوها دار حرب من باب المعاملة بالمثل -كما يتبين ذلك قريبًا- فإن أرض الإسلام لم تكن لها حرمة عند أعدائه فلم تصان أرض أولئك الأعداء؟

على أني أشعر بالألم لهذه الجفوة القاسية، وآسي لإنسانية انقسمت على هذا النحو الدامي، وتاريخ ملئ بالمحن والحروب!

لم تكن هناك جسور تصل بين الدارين، ولا عهود تؤمن الأتباع من هنا ومن هناك، بل كانت هناك تيارات من الجدل والمهاترة تشعل الأحقاد، وتورثها للأحفاد، وليس بين الفريقين إلا ما يقوله الشاعر:





الله يعلم أنا لا نحبكم ولا نلومكمو ألا تحبونا
كل له نية في بغض صاحبه بنعمة الله نقليكم وتقلونا!!

من المسئول عن ذلك؟ قبل أن أذكر ما عندي أذكر ما قاله أقطاب القانون الدولي عند الأوروبيين، وهي أقوال نقلتها عن كتاب (المجتمعات الدولية الإقليمية) المقرر في معهد الدراسات العربية العالمية بجامعة الدول العربية.

والمؤلف رجل محايد لم يره أحد يومًا في ميدان الدعوة الإسلامية هو الدكتور محمد حافظ غانم وزير التعليم العالي الأسبق.

كتب تحت عنوان (العائلة الدولية كانت تستبعد دار الإسلام من حظيرتها)

فقال: «منذ نشأة القانون الدولي الحديث كان من المقطوع به اعتبار الإسلام خارج نطاق العلاقات الدولية! وعدم الاعتراف بتمتع الشعوب الإسلامية بالحقوق التي يقررها هذا القانون»[1].

وعلى هذا الأساس لم يكن الفقهاء الأوربيون راغبين في اعتبار الدولة العثمانية جزءًا من الجماعة الدولية فـ(جروسيوس) أبو القانون الدولي قال بوجوب عدم معاملة

(١) جميع العبارات المنقولة هنا مؤصلة بمراجعها العلمية والأجنبية، وقد أثبتها كلها في كتابي (كفاح دين).





الشعوب غير المسيحية على قدم المساواة مع الشعوب المسيحية! ومع أنه يرى القانون الطبيعي مجيزًا لعقد معاهدات مع أعداء الدين المسيحي إلا أنه نادى بتكتل الأمراء المسيحيين ضد أعداء العقيدة.

و(جينتليس) هاجم (فرانسوا الأول) ملك فرنسا لعقده معاهدة مع السلطان سليمان القانوني -الخليفة العثماني- سنة **١٥٣٥م** مع أن هذه المعاهدة أقامت سلامًا بين الدولتين وأعفت الرعايا الفرنسيين من دفع الجزية التي كانت مقررة على غير المسلمين إذا ما أقاموا في دار الإسلام ومنحتهم امتيازات دينية وقضائية وذلك على أساس أن هذه المعاهدة تقيم تعاونًا بين ملك مسيحي وبين غير المؤمنين!

أقول: وهو تعاون -في نظر رجل القانون الدولي- لا يجوز بل يجب أن يبقى التناكر والتعادي بين الفريقين، وأن تهيأ الفرص لسفك المزيد من الدماء! بم نعلق؟

﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ﴾ (سبأ: **٢٥، ٢٦**)

يقول المؤلف: بل لقد ذهب فقهاء آخرون إلى أنه من الممكن إقامة سلام دائم في أوربا، على أساس تكتيل الدول المسيحية ضد العثمانيين -أي ضد المسلمين- وظهرت عدة مشروعات من هذا النوع.






ويستطرد المؤلف -بعد شرح هذه المشروعات- فيقول: إن الدول الأوروبية في تعاملها مع الشعوب الإسلامية كانت تنظر إليها كجماعات همجية غير جديرة بالتمتع بقواعد الحرب! ولقد اعتبر الاستيلاء على أراضي المسلمين عملاً فاضلاً يدعو إلى الفخر!!

ثم يقول المؤلف: ونخلص مما تقدم إلى أنه حتى النصف الأول من القرن التاسع عشر لم تكن الدولة العثمانية أو أية دولة إسلامية أخرى تتمتع بحقوق القانون الدولي.

هكذا كانت النظرة إلينا حتى بدايات العصر الحديث! والواقع أن رجال الحرب والسياسة والقانون، كانوا قبل الحروب الصليبية وبعدها ينظرون إلينا ببغضاء عميقة، وقد ورثوا عن آبائهم كفرًا برسالة محمد ورغبة جامحة في تشويهها والقضاء عليها!

محمد مدع لا صلة له بالنبوة! وأتباعه مخدوعون لا يقبل منهم إيمان، وليس لهذا الدين ولا لمن دخل فيه حق مادي أو أدبي ينبغي أن يراعى! إنهم خارجون على القانون فمن اغتالهم أو اجتاحهم لم يرتكب إثمًا!

ماذا يفعل المسلمون إذا رأوا هذا الحيف، وهم موقنون بأن الله واحد، وأن رسله كلهم -ومعهم محمد- حق؟

إذا اعتبرت أرضهم دار حرب اعتبروا أرض غيرهم دار الإسلام؟ هذي بلاهة!!

كان عباد الأصنام يشمئزون من عقيدة التوحيد!





ويرفضون سماع شيء عنها :

﴿ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا ﴾

(الإسراء : ٤٦)

ليكن : ﴿ لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ۖ أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾

(يونس : ٤١)

لا ، لن ندعك تدعو ولن ندع الآخرين يتبعونك ، والسيف هو الحاكم ! ويصور القرآن الموقف في هذه العبارة :

﴿ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا ۚ ﴾

(البقرة : ٢١٧)

فإذا تجاوزنا الوثنيين إلى أهل الكتاب وجدنا الضغائن أشد ، والأنياب أحد ، إنهم لا يطيقون سماع كلمة عن الإسلام :

﴿ وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا ﴾

(البقرة : ١٣٥)

كلا الفريقين من يهود ونصارى يريد أن ننسلخ عن ديننا ونتبعه !

إننا يا قوم أعرف بموسى وعيسى وأرعى لتراثهما الصحيح ، وأسرع إلى مرضاة الله الذي أرسلهما ، وأرسل بعدهما محمدا ﷺ .





لا لن نصفو لكم :

﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾

(البقرة : ١٢٠)

ويبذل أهل الكتاب جهود المستميت لسحق الدين الجديد، وتعويق المصدقين له، وصرفهم ولو إلى الإلحاد أو الوثنية ! !

وإنك لترى تقريع الأسى والغضب في تعليق القرآن على هذا الموقف الوضيع :

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾

(آل عمران : ٩٨ ، ٩٩)

ماذا يصنع المسلمون بإزاء هذه العداوات المحيطة؟ إن الذي يطلب منهم الاستكانة لها لا ذرة لديه من عقل .

وها قد طلع العصر الحديث، عصر عصبة الأمم، ثم هيئة الأمم، ومجلس الأمن، وقيل : إن للإنسان حقوقًا، وللشعوب كرامات ! فهل اختفت المواريث القذرة في تاريخ العالم وتخلصت البشرية من طبائع الظلم والغبن ؟

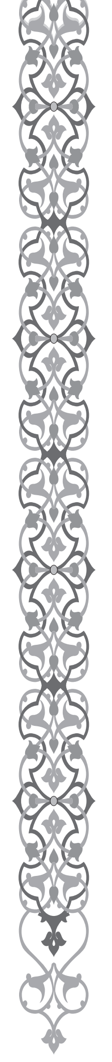
إن قضية فلسطين نموذج لشر ضروب التعصب، فقد طرد شعب مسلم من داره، وحلت محله إسرائيل، وقالت الدولة الراعية ؛ لقد خلقت إسرائيل لتبقى . . وستتبع فلسطين أقطار





أخرى ما دامت جزءًا من أرض الإِسلام لأنها في نظر الاستعمار القديم والحديث دار حرب ! !

إننا لا نحب هذا التقسيم، ولكن غيرنا ألجأنا إليه وإذا تركه تركناه..





١٨ - ما حقيقة الحرب والسلم في الإسلام...؟

... في ذلك قولان مشهوران للعلماء :

الأول : قول الجمهور كمالك وأحمد بن حنبل وأبي حنيفة وغيرهم ، يرون أن الكفار يقاتلون لاعتدائهم لا لضلالهم !

والثاني : قول الشافعي وربما علل به بعض أصحاب أحمد ، وأساس هذا القول أن الكفار يحاربون لسوء عقيدتهم ، وجحدهم لله ولحقوقه .

وقول الجمهور وهذا الذي يدل عليه الكتاب والسنة والاعتبار فإن الله سبحانه قال :

﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡ وَأَخۡرِجُوهُم مِّنۡ حَيۡثُ أَخۡرَجُوكُمۡۚ وَٱلۡفِتۡنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِيهِۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمۡ فَٱقۡتُلُوهُمۡۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١٩٢﴾ وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَلَا عُدۡوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾ ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ بِٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡحُرُمَٰتُ قِصَاصٞۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾

(البقرة: ١٩٠ - ١٩٤)

فقوله : ﴿ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ﴾ تعليل للحكم بأنهم يقاتلوننا ، فدل على أن هذا علة الأمر بالقتال. ثم ﴿وَلَا تَعۡتَدُوٓاْ﴾





والعدوان مجاوزة الحد، فدل على أن قتال من لم يقاتلنا عدوان، ويدل عليه أيضا قوله بعد هذا: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ فدل على أنه لا تجوز الزيادة.

ثم قال:

﴿وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾

الفتنة تحويل المسلم عن دينه قسرًا كما كان المشركون يفعلون بالمستضعفين، ومقاتلتهم حتى تنكسر قواهم ويعجزوا عن الفتنة، ولم يقل سبحانه قاتلوهم حتى يسلموا!

﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾

وهذا يحصل إذا ظهرت كلمة الإسلام وكان حكم الله ورسوله غالبًا.

ذاك ما جاء في الكتاب الكريم، أما ما جاء في السنة فقد صح أن النبي ﷺ مر في بعض غزواته على امرأة مقتولة -فكأنه كره ذلك- وقال: «ما كانت هذه لتقاتل!» [سنن أبي داوود] فعلمنا أن العلة في تحريم قتلها أنها لم تكن تقاتل.

وقد كان -عليه الصلاة والسلام- يوصي بعدم التعرض لمن ليس من شأنه القتال، روى أبو داود أن النبي ﷺ كان يوصي الجيش الذاهب إلي المعركة: «انطلقوا باسم الله، وبالله، وعلى ملة رسول الله، ولا تقتلوا شيخًا فانيًا، ولا طفلًا، ولا صغيرًا، ولا امرأة، ولا تغلوا، وضموا غنائمكم وأصلحوا، ﴿وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾».

(البقرة: ١٩٥)



...وقد ادعت طائفة أن هذه الآية منسوخة... ودعوى النسخ تحتاج إلى دليل وليس في القرآن ما يناقض -الآيات التي ذكرناها- بل فيه ما يوافقها فمن أين يجئ النسخ؟ الصحيح أنها محكمة وأن من ليس معدًا نفسه للقتال كالرهبان والشيوخ الفناة، والزمنى والمكافيف والمجانين، فإن هؤلاء لا يقاتلون وهذا حكم باق غير منسوخ، وهذا قول جمهور العلماء.

ونمضي نحن في مناقشة القائلين بالنسخ بشيء من التفصيل يزيد الحق وضوحًا.. ومن أعجب ما قرأت أن قوله تعالى:

﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْ ﴾

منسوخ بالآية التالية مباشرة:

﴿وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡ﴾!!

وهذا ضرب من اللغو ما كان يجوز إثباته، لأن القائل قطع جملة من:

﴿وَأَخۡرِجُوهُم مِّنۡ حَيۡثُ أَخۡرَجُوكُمۡ﴾

وضرب بها السياق كله على نحو لا يسوغ في دماغ عاقل، ولذلك نتجاوز هذا الرأي.

الدليل الذي يعتمد عليه القائلون بالنسخ ما يسمى بأية السيف، يعنون مثلًا قوله تعالى:

﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلۡأَشۡهُرُ ٱلۡحُرُمُ فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ ﴾(التوبة: ٥)



وفي هذا الكلام تلبيس خطير يجب أن ينكشف لكل ذي عينين فإن كلمة المشركين هنا فسرت في الآيات السابقة والآيات اللاحقة بأنهم قوم تفاحش عدوانهم حتى بلغ حدًا لا يطاق، وأنهم جماعة من الفتاك القادرين تعرفهم عندما تقرأ الآية التي استثنت من تصان دماؤهم من المشركين، وهي قوله سبحانه:

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُواْ عَلَيْكُمْ أَحَدًا ﴾

(التوبة: ٤)

يعني أن المشركين المطاردين هم قوم نقصونا حقوقنا وظاهروا أعداءنا، واحتقروا عهودنا.

ولكي نزداد بهم معرفة نقرأ وصفهم في الآيات الآتية:

﴿ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُواْ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨﴾ ٱشْتَرَوْاْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ ﴾ (التوبة: ٨ - ١٠)

هؤلاء المعتدون هم الذين أعلنت الحرب عليهم في صدر سورة براءة، وأعطوا أربعة أشهر مهلة ليروا ما يصنعون بأنفسهم! فهل هذا الحكم يطابق أم يخالف آية:



﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ ﴾

... قال لي بعض الإخوة: على رسلك، إن الإطار الذي تريد وضع الجهاد الإسلامي داخله قد محته آيات الجهاد المطلق، الجهاد الذي يخاصم الضلال حيث كان، ويريد غسل الأرض منه، فلا داعي لهذه القيود التي تذكر!!

قلت: أين هذه الآيات؟ قال: ألم تقرأ قوله تعالى يغري طلاب الآخرة بالجهاد:

﴿فَلۡيُقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشۡرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِۚ وَمَن يُقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقۡتَلۡ أَوۡ يَغۡلِبۡ فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمًا﴾

(النساء: ٧٤)

إن هذه الآية تحث على خوض الحروب انتصر المرء فيها أو انهزم، وما دام يريد إعلاء كلمة الله فله أجره!

قلت: لعلك لو قرأت الآية التي تليها مباشرة لعلمت أن هذه الحرب لم تكن عدوانًا بل ردًا للعدوان وكسرًا للطغيان!

أليس يقول الله -سبحانه- في حفز الهمم لخوض هذه الحروب:

﴿وَمَا لَكُمۡ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهۡلُهَا وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾

(النساء: ٧٥)





إن هذا القتال من أشرف ما دار على سطح الأرض بالنسبة إلى جمهور المسلمين، فكيف يوصف بأنه قتال لم يرتبط بقيد معين؟

فصمت قليلًا ثم قال: خذ آية أخرى قال تعالى:

﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ ﴾ (محمد: ٤)

قلت هذه آية تصف ما يجب عند التحام الرجال في المعركة، ولا تتحدث عن سبب القتال، ومع ذلك فلو سلمنا بوجهة نظرك فإن أول السورة التي ذكرت فيها الآية يحدد من هو العدو الذي نحاربه!

أول هذه السورة:

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾

(محمد: ٨)

والصد عن سبيل الله يعني تعويق الدعوة عن المضي في مسارها، وإيذاء المؤمنين الذين تنشرح صدورهم بها، وهذا عدوان حقيقي!!

قال: خذ آية أخرى والآيات كثيرة:

﴿ ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

(التوبة: ٤١)

قلت: هذه الآية بين عشرات من الآيات التي نزلت في غزوة تبوك تستنفر المؤمنين كي يقاتلوا الروم، ويحدوا من





طغيان النصرانية شمال جزيرة العرب، ومعروف أن الرومان قتلوا بعض من أسلم في مدينة (معان) ونشروا الرعب في بقاع واسعة كان عملاؤهم يحكمونها.

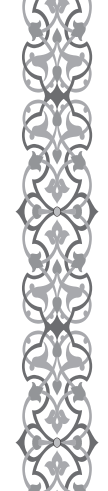
وقد حاول المسلمون أن يوقفوا هذا التحدي، وأرسلوا جيشًا إلى (مؤتة) هزمه الرومان، وقتل القواد الثلاثة الذين حاولوا الصمود به، ولم يجد المسلمون بدًا من الانسحاب، فعادوا إلى المدينة وقلوبهم كسيرة.

وازداد الطين بلة، فإن تيار الدعوة ركد تحت تأثير السطوة الرومانية المحذورة ولم ير النبي مناصًا من إعداد أكبر جيش في تاريخ الدعوة لينازل الإمبراطورية العجوز ويلزمها حدودها إن الحرب كانت واجبًا حتمًا، ولم تكن غارة عمياء، وسوف نزيد الأمر وضوحًا فيما بعد.









١٩ - لماذا حمل الرسول السيف؟ ولم يكتف بالإقناع؟

في هذا السؤال إيماءة مرفوضة إلى أن الرسول حارب ليحمل الخصوم على قبول الدعوة! وهذه تهمة لا أصل لها من عقل أو نقل! ماذا يدعيه المدعون بعد أمر الله لرسوله ﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ (الكهف: ٢٩)

قوله سبحانه:

﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴾ (الإنسان: ٢٩)

إن الإسلام بنى خطته في الحياة على استحالة زوال الأديان كلها، واكتفى بأن يبقى مذكرًا بالحق، منكرًا للهوى، وترى ذلك في قوله سبحانه:

﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

(البقرة: ١٤٥)

حسبنا نحن المسلمين أن نقرر الحق، وأن نحيا على هداه، وأن نمهد طريقه لمن أحب سلوكه، ولنا بلا ريب أن نرد المهاجمين، وأن نحمي المستضعفين، وأن نسكت المفترين إذا تمادوا في أذاهم!





ولننظر في الكتاب الذي أرسله النبي ﷺ إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام، ولنتأمل ما جاء فيه «بسم الله الرحمن الرحيم -من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم .. سلام على من اتبع الهدى؛ أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين، وإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين:

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾

(آل عمران: ٦٤)

بم ختم هذا الكتاب؟ إن رفضتم الإسلام فاعلموا أننا مسلمون باقون على إسلامنا، لا تهديد ولا سباب وإنما جاء التأثيم في موقف هرقل -إذا بقي على دينه- من (الأريسيين).

ونحن نرى مع بعض المحققين أن الأريسيين هم أتباع آريوس البطريق الذي قاد حركة الموحدين في التاريخ الكنسي، ورفض بقوة جعل عيسى إلهًا أو ابنا لله .. وهذا القس الموحد لقي مع أتباعه اضطهادًا شديدًا، وتضافرت قوى الدولة الرومانية على مطاردته ومصادرة دعوته، وورثت الحكومات الأخرى هذا الترويع حتى انقرضت كنيسته أو كادت..!

ونستبعد أن يكون المراد بكلمة الأريسيين الفلاحين، ومأساة الموحدين في أرجاء الإمبراطورية الرومانية ثم في



أرجاء أوربا معروفة، ومن حق نبي الإسلام أن يندد بها، ويذكر هرقل بموقفه منها.

إنني -بعد إذ هديت إلى ذلك الفهم- عرفت أن الأستاذين معروف الدواليبي وأبا الحسن الندوي سبقاني إليه، وذلك ما يقويه ويؤكده.

وربما كان الرومانيون يحسبون الإسلام امتدادًا لبدعة آريوس -كما يصفونها- وأيا ما كان الأمر فقد حاولوا البطش بالإسلام ودعاته، وشرعوا يقتلون من دخل فيه!

ولولا السيف الإسلامي الصلب، ولولا الرجال أولو البأس الذين حملوه، ولولا نبي الملحمة الذي انتصب دون دينه وعرينه، لذهب الإسلام في خبر كان، وربما ضن عليه الاستعماريون بدموع التماسيح بعد ما يزول!!

إن المؤرخين الأوروبيين غضاب لأن الإسلام قاتل الرومان! فهل سأل أحدهم نفسه: ما الذي جاء بالرومان إلى الشام وآسيا الصغرى؟ وما الذي جاء بهم إلى مصر والشمال الإفريقي؟

أكان الإقناع طريقًا إلى إخراج أولئك المستعمرين من أرض احتلوها أكثر من عشرة قرون؟ هل أفلح الإقناع في إنهاء استعمار البيض لجنوب إفريقيا؟

إن الحرب وحدها بكل مغارمها ومتاعبها هي الطريق الفذ لمحو الاستعمار الطويل!

إن الإسلام أغنى الأديان بالأدلة وأحرصها على استثارة






الأفكار ومناشدة الضمائر، وكان يمكن أن يلام لو أنه آثر إعمال السيف على إعمال العقل، أو قابل اللطف بالعنف أما أن يعرض حجته فيلقى الهزء والهوان، ثم يحاول المتمرسون بالدهاء والجبروت أن يواروه الثرى، فدون ذلك ركوب الأهوال.

والناس إن ظلموا البرهان واعتسفوا
فالحرب أجدى على الدنيا من السلم

يقول أحدهم: وقد كانت سيرته ﷺ أن كل من هادنه من الكفار لا يقاتله! وهذه كتب الحديث والتفسير والفقه والمغازي تنطق بذلك، بل هو متواتر في سيرته، فلم يبدأ أحدًا من الكفار بقتال.. ولو أن الله أمره بقتل أعدائه لبدأهم بالحروب، ولكنه لم يفعل...

إن القتال فرض على المسلمين فرضًا، واضطروا لخوضه دفاعًا عن أنفسهم وعقيدتهم وإلى هذا تشير الآية الكريمة:

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ﴾

(الحج: ٣٩، ٤٠)

أترى المطرود من وطنه لأنه مؤمن بربه يعد مهاجمًا إذا قاتل طارديه؟ إن الدهشة تملكني عندما رأيت كتابًا يصفون معركة بدر بأنها دليل على أن الحرب في الإسلام هجومية! قريش كانت مظلومة وكان المسلمون هم الظلمة!





إنه المنطق نفسه الذي اتبع في وصف المقاتلين الفلسطينيين الذين اغتصبت أرضهم ودورهم وألجئوا إلى العراء!! اعتبروا إرهابيين معتدين على اليهود الآمنين الطيبين!!

وقد ربط القرآن الكريم بقاء المساجد والمعابد بقتال المؤمنين ورفضهم الاستكانة والاستسلام

﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ﴾

(الحج: ٤٠)

أيحسب عاقل أن هذه النتائج النبيلة نشأت عن حروب عدوانية؟ ترى لو أن الرومان نجحوا في قهر المسلمين واجتياح بلادهم أكان يبقى مسجد يرتفع فوقه صوت مؤذن؟ ذلك سر الغضب في نظم الآية الكريمة

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾

(البقرة: ١١٤)

والحرب مع الفرس بدأ شررها منذ مزق كسري كتاب الرسول الذي يدعوه فيه إلى الإسلام، لقد غضب هذا الكسرى غضبًا شديدًا وكلف واليه على جنوب الجزيرة أن





يأتيه بمحمد هذا ؟

وكان الفرس ينظرون إلى العرب بازدراء، ويحتلون أرض العراق، ومن ثم أنف كسرى أن يحاول عربي هدايته ! ! أفكان الفرس يأذنون لمسلم أن يجوس خلال ديارهم يدعو أحدً إلى الله ؟

السيف وحده هو الذي يحل تلك المشكلة، وماذا صنع السيف، قلم أظافر الطغاة، وتركهم بعد تجريدهم من السلاح يفكرون في هدوء ! ويتدبرون ما يعرض عليهم بعقل ! لا إكراه على دين ! !

لا نعرف في تاريخ البشرية حامل سيف أعف من محمد، ما غضب لنفسه قط، ما غضب إلا لله وحده...

قالوا غزوت ورسل الله ما بعثوا
بقتل نفس ولا جاءوا بسفك دم
جهل وتضليل أحلام، وسفسطة
غزوت بالسيف بعد الغزو بالقلم
والجهل إن تلقه بالحلم ضقت به
ذرعا وإن تلقه بالجهل ينحسم





٢٠- هل الجهاد مقصور على الدفاع؛ أم يتجاوز ذلك لإكراه الناس بالقوة على الدخول في الإسلام؟

هناك ثلاثة مواطن يجب فيها على المسلم أن يقاتل في سبيل الله، ويعد مسيئًا إذا تخلف عنها..

المواطن الأول: منع الفتنة، فقد يتعرض المسلمون في بعض البلاد لصنوف من الترويع والأذى تنزل بهم حتى يرتدوا عن دينهم، ولا يجوز ترك حملة العقيدة تحت وطأة هذا العذاب، بل يجب كسر شوكة المعتدين وإسقاط سلطتهم حتى تتقرر حرية الضمير ويؤمن من شاء دون خوف! قال تعالى ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ ۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ (الأنفال: ٣٩، ٤٠)

الموطن الثاني: تأمين الدعوة، فمن حق المسلمين أن يعرضوا ما عندهم على غيرهم عرضًا عاديًا لا تقترن به رغبة أو رهبة، أي رشوة أو تخويف، فإذا عطلت إذاعتهم أو صودرت كتبهم أو حبس دعاتهم جاز لهم أن يقاتلوا حتى يتقرر لهم هذا الحق، أي جاز لهم أن يكسروا السياج الحديدي الذي تحتمي وراءه بعض الفلسفات والمذاهب الضالة.

الموطن الثالث: عند الحفاظ على الدم والمال والعرض، فلا يجوز لمسلم أن يسلم حقوقه الطبيعية لقطاع الطرق





المحليين أو الدوليين، عليه أن يناضل لتبقى له، ولا يحل له أن يقبل الدنية في دينه أو دنياه

﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾

(الشورى: ٣٩، ٤٠)

ويمكن أن يضاف إلى هذه المواطن جهاد المجرمين الذين يحيون في الميدان العالمي على القرصنة والتفرقة العنصرية وإيقاع المظالم بالضعفاء أيا كانوا وأين كانوا.

أما القتال لنعرة جنسية أو لأطماع شخصية، أو لفرض الإسلام نفسه على الناس بالسلاح فمرفوض، قال تعالى:

﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ ﴾

(البقرة: ٢٥٦)

وقد وردت في القرآن الكريم آيات تزيد على مائة وعشرين آية تفيد كلها أن نشر الإسلام أساسه الإقناع الهادئ، والتعليم المجرد، وترك الناس أحرارًا بعد عرض الدعوة عليهم ليقبلوها أو يردوها!!

وقد كان الرسول ﷺ شديد الإلحاح على الناس ليفهموا ما جاء به، ويهجروا عبادة الأصنام! وكان لشدة حنوه عليهم يطيل مطالبتهم باعتناق الحق وترك الباطل فقال الله له:

﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾

(يونس: ٩٩)





والواقع أن الإكراه على الحق لا وجود له في الرسالات السماوية كلها، وتدبر ما جاء في القرآن الكريم على لسان نوح:

﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتۡ عَلَيۡكُمۡ أَنُلۡزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمۡ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴾

(هود: ٢٨)

وقد حدد القرآن الكريم عمل النبي ﷺ في نشر الإسلام، فكشف أنه ليس حاكمًا عسكريًا يفرض على الناس ما عنده أو موفدًا من السماء لإرغام مستمعيه على قبول ما يقول

﴿ فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ ٢١ لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ ﴾

(الغاشية: ٢١، ٢٢)

﴿ نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَقُولُونَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِجَبَّارٖۖ فَذَكِّرۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾

(ق: ٤٥)

﴿ فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظًاۖ إِنۡ عَلَيۡكَ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ﴾

(الشورى: ٤٨)

نعم بعد بيان شاف لحقائق الإيمان بالله واليوم الآخر يقال للمستعمين:

﴿ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلۡحَقُّۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴾

(النبأ: ٣٩)



﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾

(الأنعام: ١٠٤)

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾

(ق: ٣٧)

هذا نموذج من الآيات التي نزلت في مكة، قبل أن يشتبك المسلمون مع أعدائهم في حروب دامية، كان أولئك المشركون هم موقدي نارها وحاملي عارها، فماذا حدث في المدينة بعد ما قامت الدولة الإسلامية؟ يقول تعالى:

﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾

(آل عمران: ٢٠)

وفي موضع آخر

﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُوا۟ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾

(المائدة: ٩٢)

ويؤمر صاحب الرسالة الخاتمة بهذه الآية

﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ



﴿وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا ۚ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾

(النور: ٥٤)

وقد قلنا إن أسلوب عرض الإسلام على الناس تحدد في نحو مائة وعشرين آية.

قال أحدهم: وبعد فتح مكة ترك الرسول ﷺ أهلها قائلًا لهم: اذهبوا فأنتم الطلقاء، لم يكرههم على إسلام، ولا يقدر أحد أن ينقل أنه أكره أحدًا على دخول الإسلام، لا متحصنًا ولا مقدورًا عليه، ولا فائدة في إسلام مثل هذا.

نقول: وهذا بداهة وقع نزولًا على قوله تعالى:

﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ۚ﴾

(البقرة: ٢٥٦)

ومن أغرب الأقوال زعم بعض أن هذه الآية منسوخة!!

قال أحدهم: وجمهور السلف والخلف على أن الآية لا مخصوصة ولا منسوخة، وأنا لا نكره أحدًا على الإسلام، وإنما نقاتل من حاربنا.

وآفة ثقافتنا الإسلامية أنها تدون كل شيء، ويتجاور فيها التافه والثمين!

فهذا القول الشاذ بأن آية ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ منسوخة كتب إلى جوار القول الذي تواتر عن السلف والخلف! وأصبح كلامًا يقال! ثم أصبح رأيًا يذكر! وينضم



إليه أن الرسول حارب في بدر مهاجما ! وبذلك وهذا يصبح الإسلام دين عدوان .. ثم يجئ دور المبشرين الذين يصيحون : ألم نقل لكم : إن الإسلام انتشر بالسيف ؟

إن هذا المنطق اللصيق بالإسلام يعجب علماء البدو الذين يحبون الغارات ، ويرحبون بويلاتها ويقولون :

وأحيانا نكر على أخينا
إذا ما لم نجد إلا أخانا

وتسرهم الحياة على ما وصف دريد بن الصمة :

يُغار علينا واترين فيشتفى
بنا إن أصبنا ، أو نغير على وتر
قسمنا بذاك الدهر شطرين بيننا
فما ينقضي إلا ونحن على شطر

وما أسوأها حياة أن نغير طلاب ثأر، أو يغار علينا لمثل ذلك !

وهذا المنطق الدموي قد يعجب السلاطين والقادة المرضى بجنون العظمة، إنهم قد يحملون اسم الإسلام والحقيقة أنهم يعبدون أنفسهم ، ويسفكون في سبيلها دماء المؤمنين والكافرين جميعًا .

لماذا فتح السلطان سليم مصر؟ وأجرى الدماء فيها أنهارًا ؟ ولماذا لم يستعن بالمسلمين العرب على نشر الثقافة الإسلامية في بلاده وفي غيرها ؟ ولماذا ترك مسلمي الأندلس يبيدون دون عون وتموت دولتهم أمام الزحف الصليبي ؟



إننا نكرر القول بأن الإسلام يأبى الإكراه في الدين، وإن كل ما ينشد حياة تتلاقى فيها التيارات الفكرية من كل جهة، فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض.

قال ابن القيم في كتابه هداية الحيارى:

﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ﴾

هذا نفي في معنى النهي! أي لا تكرهوا أحدًا على الدين، نزلت هذه الآية في رجال من الصحابة كان لهم أولاد قد تهودوا أو تنصروا قبل الإسلام، فلما جاء الإسلام أسلم آباؤهم وأرادوا إكراه أولادهم على الدين فنهاهم الله سبحانه عن ذلك، حتى يكونوا هم الذين يختارون الدخول في الإسلام!

قال: «والصحيح أن الآية على عمومها في حق كل كافر»

إن الإكراه سلاح كل فقير في براهينه فاشل في إقناعه، أعوزه المنطق فأسعفته العصا! وإنه لمن الجهل المخزي أن يتحدث في الإسلام من لا يعرف إعجازه العقلي، وقدرته الذاتية على الانتشار والانتصار.



٢١- هل فريضة الجهاد لا تزال قائمة؟ وما واجب المسلمين اليوم تجاهها؟

ما من أيام الجهاد فيهن أحب إلى الله من هذه الأيام النحسات التي يذوق فيها المسلمون هزائم في كل ميدان، ويفقدون فيها الأرض والعرض والدنيا والآخرة!!

غير أن الجهاد المطلوب من طراز آخر غير ما ألف الناس، إنه جهاد الكلمة، وجهاد البحث والدرس، وجهاد المال والقانون .. وأخيرًا الجهاد بالنفس حتى لا نفقد عقائدنا وكل مقوماتنا المادية والأدبية.

كان العدوان على أرض الإسلام قديمًا يتم بين دق الطبول وصيحات المتعصبين الوحشية، والصراخ المجنون بضرورة القضاء على دين محمد!

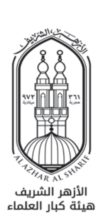
أما في العصر الحديث فجريمة القتل تتسم بمسدس به كاتم للصوت، ووسط كلمات معسولة تخفي وراءها الحقد الدفين.

إن الاستعمار العالمي لم ينس يوما كراهيته العميقة للإسلام، ورغبته الهائلة في وأده!

وقبل أن أشرح خطته الجديدة أشير إلى خطة قديمة مستغربة:

إن الغرض من كشف العالم الجديد لم يكن لأسباب اقتصادية مجردة!! بل كان لأسباب دينية أهمها القضاء على





الإسلام ! ! وأترك الكلام للمؤرخ العالمي (هربرت فيشر) : «لا يمكن القول بأن الدافع لاكتشاف العالم الجديد لا يتعدى الرغبة في الحصول على التوابل والذهب إذا اختلطت المشاعر الدينية بالمطامع الاقتصادية، ففي الفاتيكان كانت المشروعات التبشيرية تتناول العالم بأسره، وكانت مشروعات البرتغال وإسبانيا تثير أكبر قسط من الاهتمام، لا لأنها تفضي إلى تنصير الوثنيين فحسب، ولكنها أيضًا ستفضي إلى شن هجوم على المسلمين من ناحية الشرق ! ! كان المعروف أن نجاشي الحبشة مسيحي، وكان المعتقد أن بالهند دولة مسيحية يحكمها عاهل يلقب بالخان الأكبر، وكان يداعب أوروبا الكاثوليكية أمل كبير في أن تتلقى من هؤلاء الملوك الشرقيين مساعدة فعالة في حرب صليبية ضخمة أخيرة تشنها علي المسلمين، تلك هي خطة الهند كما رسمها نقولا الخامس -بابا روما- منذ وقت مبكر يرجع إلى سنة ١٤٥٤م في مرسوم بابوي إلى ملك البرتغال، وفي هذا الجو المفعم بالآمال الكبار أقلع كولومبس ليكشف الطريق إلى الهند غربًا»[١]

نقول وليبدأ تنفيذ المخطط الاستعماري كما رسمه البابا نقولا الخامس.

(١) من كتاب (أصول التاريخ الأوروبي الحديث) ترجمة أساتذة التاريخ بجامعة عين شمس، وقد لفتني إلى هذه الفقرات الدكتور عبد الجليل شلبي الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية الأسبق.





لكن القدر لم يقد كولومبس إلى الهند كما كان يتصور، لقد قاده إلى أمريكا! وتأخر تنفيذ الخطة العتيدة، إلى أن استولت أوربا على الشرق الإسلامي وغير الإسلامي في القرن الرابع عشر للهجرة، وشرع الحقد القديم يتنفس، إنه يتنفس هذه المرة بخبث هائل، ويعمل بدهاء وأناة داخل حجرات ناعمة، تاركًا خصومه ينبجون في العراء!

وإذا احتاج الأمر إلى البطش أخمد أنفاس الجماهير في صمت كذلك أو بأقل الضجيج!!

وقد شرحنا في موضع آخر من كتبنا الأسلوب الذي اتخذ للقضاء على الإسلام أمته ودولته ولا بأس من الإشارة إليه هنا:

١- بعد توهين دولة الخلافة وانتقاص أطرافها وجهت إليها ضربة قاتلة في أعقاب الحرب العالمية الأولى طوت رايتها، وقضت على الوجود الرسمي للإسلام في الميدان الدولي.

... وفي الوقت الذي محا الاستعمار فيه هذه القيادة التقليدية دعم القيادات التقليدية لشتى الأديان الأخرى!

٢- أكثر الاستعمار من صناعة دول لها صبغة تريحه، وليس لها كيان طبيعي، ولما كان الدين الأول في إفريقية هو الإسلام فقد أعاد رسم القارة المنكوبة جغرافيًا وسياسيًا فأنشأ أكثر من خمسين دولة راعى في تكوين كل واحدة ضم كثرة إسلامية إلى قلة خلقها التبشير، وجعل الحكم في هذه القلة! وأسبغ عليها رعايته وتأييده، وترك الجمهور المسلم لا حول له ولا طول يفترسه الجهل والفقر والمرض!



٣- عمل على تنمية القوميات الصغيرة والكبيرة، واجتهد أن تحيا وفق مذاهب علمانية أو شيوعية وأوعز إلى ساستها ألا يجعلوا الإسلام دين الدولة، وأن يحذفوا هذا النص من الدستور.

٤- في الأقطار التي يعز فيها ذلك، يكون تمويت النزعة الإسلامية بإقصائها عن ميادين التعليم والتشريع، وخلق إعلام مائع وأدب ماجن وقضايا تشغل الفراغ وتبدد الطاقات وتدوخ الجماهير.

٥- فسح الطريق أمام الحركات الدينية المخرفة، وتركها تنشط لجمع الأجيال التائهة على أفكار بالية وجدل عقيم والمتدينون البله عون عظيم -من حيث لا يشعرون- للاستعمار العالمي، وطريق مختصر للإزراء على الدين وأهله.

٦- إلغاء التعليم الأصلي إن أمكن، وتنصيب رؤساء تافهين على معاهده التقليدية يدورون حول أنفسهم ولا يغنون عن الإسلام شيئًا ويلحق بذلك إلحاق هزائم منكرة باللغة العربية في كل ميدان.

٧- إبقاء التخلف الحضاري والصناعي والثقافي وجعل المسلمين أمما مستهلكة لا منتجة، بحيث إذا حدثت صحوة إسلامية -رغم كل حيطة- لم تجد وراءها، ما يمدها بالقوة أو يهيئ لها التقدم والنجاح.

من أجل ذلك قلنا: إن الجهاد الإسلامي حق، لكن الوسائل الصحيحة ليست في العنف والنزق والحماس الطفولي،



بل في خطوات مدروسة وغايات واضحة تلبي حاجات أمة كسيرة ودين مهزوم في أغلب الجبهات ! !

إن الجهاد أضحى فرض عين على كل مسلم ومسلمة في وجه غارات دائبة لحوح تريد اقتلاع الإسلام عن جذوره، وترفض كل الرفض أن يعيش أتباعه وفق تعاليمه.

وقد كنت أحسب أن الارتقاء الحضاري الحديث قد محا أحقاد الماضي، ويسر للناس جميعًا أن يتعارفوا لا أن يتناكروا، فلما وقعت مذابح لبنان الأخيرة رأيت كأن العداوة ولدت اليوم أو أمس فقط! ورأيت جثث الأطفال المشوهة المبعثرة هنا وهناك تشهد بأن القوم يقتلون في هؤلاء الأطفال امتداد الإسلام للغد القريب أو البعيد ! ! إنها هي مذبحة بيت المقدس أواخر القرن الرابع الهجري !

ومن المفيد أن يعرف من يجهل أن مذابح صابرا وشاتيلا كشفتها المصادفات البحتة، وأن مذابح سبقتها بين الفلسطينيين واللبنانيين تمت في صمت كئيب، وخرس من شاهدها من الصحفيين الأجانب لأنهم وجدوا أنفسهم فرادى مروعين.

وقد أحصت منظمة التحرير عدد القتلى باثنين وسبعين ألفا منذ الهجوم الذي أغضت عنه المنظمات الدولية واكتفت في استنكاره ببيان شاحب خافت.

إن من حقنا أن ندافع عن ديننا وعن أرضنا، وإنها لسفالة أن يطلب منا طالب أن نرتد عن إيماننا وأن نترك لغيرنا بلادنا.

لماذا يباح لليهودي أن ينتمي إلى توراته، وأن يهتدي





بنصوصها على تحديد الأرض التي يريدها من كياننا ولا يباح للمسلم أن ينتمي إلي قرآنه وهو يرد هذا الاعتداء؟

لماذا يكون الإيمان -من خلال تعاليم القرآن- رجعية ممقوتة، ويكون الإلحاد من خلال تعاليم الماركسية تقدمًا محترمًا؟

لماذا يكون سجن يهودي في روسيا جريمة يضطرب لها الضمير العالمي ويكون قتل الألوف المؤلفة منا شيئًا عاديًا؟

إن الجهاد فرض عين على كل مسلم ومسلمة حتى يظفر الإسلام بحق الحياة لنفسه وأتباعه دون ضغائن وعوائق، ولسنا نوجب الجهاد لاضطهاد أقلية أو قسر الغير على عقيدة يأباها!

بيد أن حق الحياة للإسلام وأمته مطلب منكور بغيض لدى الكثيرين، والاستعمار العالمي بشعبه كلها يمتد في فراغ، وسط أمم استهلكها أتباع الشهوات، وحب الدنيا وكراهية الموت!! وتوجد حرب دامية الأن بين مسلمي أفغانستان والاتحاد السوفيتي، وأعرف من المجاهدين رجالا يقاومون -ببسالة- ما يراد بهم، لكن ماذا يفعلون أمام أنواع من المبيدات الكيماوية، والآلات الجهنمية في البر والجو؟

إننا ندفع ضريبة تخلفنا العام! والجهاد المثمر ينبغي أن يتجه إلى أسباب هذا التخلف العلمية والخلقية الموروثة والمجلوبة.

وبذلك ننجح في صد الطغاة ودحر العدوان.






٢٢- ما معنى أن الله جعل المسلمين أمةً وسطًا؟

قالوا من قديم: إن الفضيلة وسط بين رذيلتين، وسواء اطرد هذا القول أم لم يطرد فإن الحقيقة تضيع بين الإفراط والتفريط، والناس يعانون كثيرًا من الغلو الشديد والإهمال البارد.

وعندما ظهر الإسلام كان اليهود معروفين بالحرص على الحياة والحب القويّ للمال، وطلبه من الربا ومن وجوه السحت الأخرى، وأن المسيحيين يرون التقوى في الرهبانية والزهد واحتقار المال، حتى قيل في كتبهم: لأَن يلج الجمل في سم الخياط أقربُ من أن يدخل الغني ملكوت السموات!!

وجاء الإسلام فرفض المسلكين، وعد المال وسيلة لما بعده وقال النبي ﷺ: «إن هذا المال خضرٌ حلوٌ ونِعْمَ صاحبُ المسلم هو، لمن أعطى منه اليتيم والمسكين وابن السبيل، وإن من يأخذه بغير حق كمن يأكل ولا يشبع، ويكون عليه شهيدًا يوم القيامة». (مسند أحمد)

وكانت الصرامة والقسوة ملحوظتين في تعاليم اليهود، كأن التقوى عقوبة مرصدة لكل ذنب، وكأن مرضاة الله لا تتم إلا بواجبات جافة ومظاهر محبوكة، فجاء عيسى عليه السلام يتحدث عن القلوب الرقيقة والبشرية الضعيفة الفقيرة إلى عفو الله.

وقالوا: إنه ترك امرأة اقتيدت متهمة بالإثم، وقال لليهود:





من كان منكم بلا خطيئة فليتقدم ليرجمها.. !

وجاء الإسلام فرفض العبادة المقرونة بالصلف والاستعلاء على الناس! ويسر التوبة لكل عاثر وأمر بستره والتجاوز عنه! وأقر العقاب لمن يتبجح بجرمه ويؤذي المجتمع بالإصرار عليه!!

أى إنه رفض الطاعة المستكبرة، ورحم المعصية النادمة وطلب الإصلاح المتواضع الرقيق! يقول علي بن أبي طالب: الفقيه كل الفقيه من لم يقنِّط الناس من رحمة الله، ولم يؤمنهم مكره!

والحق أن عيسى عليه السلام لم يستهن بجريمة الزنى، ولكنه كما روى الإمام مالك عنه يقول: لا تنظروا في ذنوب الناس كأنكم أرباب، وانظروا في ذنوبكم كأنكم عبيد، فإنما الناس مبتلًى ومعافًى، فارحموا أهل البلاء واحمدوا الله على العافية.

والإسلام دين وسط يأمر الأمة بالتزام الصراط المستقيم ويحذرها من الخطوط المنحرفة يمينًا والمنحرفة يسارًا.

سئل ابن مسعود رضي الله عنه: ما الصراط المستقيم؟ فقال: تركَنا محمدٌ في أدناه، وطرفُه في الجنة، وعن يمينه جوادٌ وعن يساره جوادٌ -يعني طرقًا شتى- وثَم رجال يَدْعون من مر بهم، فمن أخذ في تلك الجواد انتهت بهم إلى النار، ومن أخذ على الصراط المستقيم انتهى به إلى الجنة، ثم قرأ ابن مسعود:



﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾

(الأنعام: ١٥٣)

والغلو في الدين قد ينتج عن خطأ في الفكر أو عوج في الطبع، وغالبًا ما يزيغ عن الحق وينتهي بالانسلاخ عن الدين الصحيح؛ لذلك يقول الله -تعالى- لنبيه:

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾

(المائدة: ٧٧)

هناك من يبالغ في التعبد فينحرف يمينًا بالابتداع والحماس الكاذب، وهناك من ينحرف يسارًا بالإهمال المنتهي بالجحود والتمرد، يقول الشيخ محمد عبدالله دراز: «كأنه أشار باليمين إلى طرف الإفراط والتعمق في الدين، وباليسار إلى طرف التفريط والتقصير، كلاهما منحرف عن سواء السبيل، وعن الوسط الذي لا يميل إلى أحد الجانبين، ونحن لو تتبعنا أنواع البدع والضلالات الاعتقادية وفتن الشبهات التي أشارت إليها أحاديث افتراق الأمة على بضع وستين شعبة أو البدع والضلالات العملية وفنون الشهوات التي أشارت إليها أحاديث فتح الدنيا وبسطها لهذه الأمة وتنافسهم فيها وجعل بأسهم بينهم... إلخ، لوجدناها لا تعدو هذين الطرفين».



إن الإسلام يجعل التوسط فضيلة في شئون الدين والدنيا جميعًا، ففي مجال التعبد يرفض الإسلام الجهد المضني، ويؤثر الاعتدال المستمر، قال رسول الله ﷺ: «إن لكل شيء شِرَةً -حماسًا ونشاطًا- ولكلِّ شرةٍ فترةً -برودًا وعجزًا- فإنْ صاحبُها سدَّد وقاربَ فارجوه، وإن أشير إليه بالأصابع فلا تعدوه». (سنن الترمذي)

وفي شئون الدنيا يكره الإسلام التبذير والتقتير، ويحب الإنفاق المعقول، وقد وصف الله عباد الرحمن فقال:

﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا ﴾

(الفرقان: ٦٧)

في مجال العلم الديني رأيت ناسًا متبحرين في المنقول والمعقول بهم فقه واسع، ومحفوظات كثيرة، لكن قلوبهم يشينها جفاف بالغ، تولى أحدهم القضاء، وقُدمتْ إليه امرأةٌ متهمةٌ بالزنى، فما زال يستدرجها ويمكر بها حتى اعترفت له، وحكم برجمها؛ لأنها متزوجة!!

قلت: هذا منهج يهودي، فإن رسول الله ﷺ كان يرشد المتهم ليفرَّ من العقاب ويتراجع عن قراره.. ويتحايل عليه لينصرف آمنًا.. أما هذا القاضي فإنه احتال على المذنب ليقتله! ليس هذا أسلوب الإسلام، العلة أن جانبًا آخر من الثقافة الإسلامية لم يصلح قلب الرجل فبقي معتلًا، ولو



ألف (علم القلوب) وذاق الجانب العاطفي من الإِسلام لَسَتَرَ وغَفَرَ يستره الله ويغفر له!!

والمحزن أن هناك انفصالًا في علومنا الدينية بين الفقه والتصوف، مما جعل المتصوفين يجنحون أحيانًا إلى الجنون، وجعل الفقهاء أحيانًا يمثلون القانون العاتي الأصم.. والوسطية فضيلة تبرز في توجيهات الإِسلام الاجتماعية والاقتصادية، ففي العلاقة بين الرجال والنساء مثلًا أبى أن تكون المرأة حبيسة البيت أو طريدته! وأن تكون نظرة الرجل إليها نظرة السجان أو الصياد!

البيت هو المحضن الذي تتولى المرأة فيه تربية الجيل الجديد وتنشئته على تعاليم الدين وتقاليده، وليس البيت سجنًا كما تفهم ذلك بعض التقاليد السائدة عندنا وليس ملتقًى عابرًا للأبوين والأولاد كما تألف ذلك أوروبا حيث الأُسَر شكل لا موضوع له.

وللمجتمع العام حظ من حياة المرأة، فهي تتعلم وتعلم وتتداوى وتأمر وتنهى وتبايع، وقد تشارك الجيش في بعض الخدمات الطبية، وقد تقاتل إن اقتضى الأمرُ الدفاعَ، وينبغي أن تكون خبيرة بشئون أمتها الدينية والمدنية.

وهناك من يأبى على المرأة هذا كله أو بعضه.. في الوقت الذي أسرفت فيه المرأة الغربية إسرافًا شائنًا في الذوبان خارج البيت، وضد رسالتها الأولى.

لو التزمنا وسطية الإِسلام لكان ذلك أرضى لله وأسعد للأمة





وأزكى للجنسين معًا وفي الناحية الاقتصادية أقر الإسلام حق الملكية الفردية، بيد أنه كبح جماحه بقيود الحلال والحرام، وانتقص أطرافه بحقوق الضعاف والمتعبين.

وبذلك ضمن إنتاجًا غزيرًا؛ لأن الحوافز قائمة، وحفظ الجماعة من التفكك؛ لأن التواصي بالرحمة لم يدع ثغرة إلا سدها، ونجت الشعوب من الشيوعية الكافرة والرأسمالية الجائرة.

والمفروض أن المسلمين يتعلمون من نبيهم ﷺ هذه الحقائق ويعونها ويطبقونها، فإن الله سائلهم عن الهدايات التي بلغتهم: هل انتفعوا بها ونفعوا بها الناس؟

وما من أمة إلا وهي موقوفة لتواجه هذا الحساب يوم القيامة:

﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴾

(النساء: ٤١)

نعم ومحمد شهيد على المسلمين أنه أخذهم بتلك التعاليم الجليلة، وسيدلي بهذه الشهادة أمام الله، كما أن المسلمين سيسألون: هل عملوا كما تعلموا؟ إن الأمم كلها مكلفة أن تسمع منهم وتستفيد!

وهم شهداء على الأمم؛ لأنهم حملة الرسالة العامة، ومبلغو (الوسطية) التي شرحناها آنفًا وكما كان محمد ﷺ أستاذًا لهم فهم أساتذة لسائر شعوب الأرض!

ذلك معنى قوله تعالى:

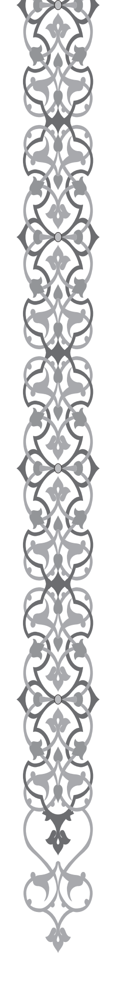


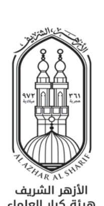



﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ ﴾

(البقرة: ١٤٣)

والمؤسف أن الأمة المكلفة بذلك فرطت في البلاغ والتعليم! بل فرطت في العمل والتأسي بنبيها، بل لقد أصبحت اليوم ذيلًا لأحزاب الميمنة والميسرة في الشرق والغرب ونسيت الصراط المستقيم.





٢٣- كيف يبني الإسلام الأمة المسلمة؟

ألف الناس في عصرنا أن يكون ولاء الإنسان الأول لوطنه وقومه! حسنًا: ما الوطن؟ قطعة من الأرض تربطنا بها حقوق وذكريات! لكن من صاحب هذه الأرض ومالكها؟

﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

(المؤمنون: ٨٤)

ومن خلق الأقوام الذين يَحْيَوْن فوقها وشدَّ أسرَهم ودبَّر أمرهم؟

﴿ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ ﴾

(يونس: ٦٦)

ألا تكون العلائق أوثق وأسبق بهذا الإله الخالق المالك؟

إن الإسلام حين يبني الأمة يجعل الإيمان العميق هو الدعامة الأولى في هذا البناء، ويجعل الولاء لله والعمل له الوظيفة الأولى للإنسان الراشد السوي.

إن عواطف من الربانية الغامرة هي التي تحرك المسلم وتحدد له غايته ومنهاجه، وهي عواطف تتنامى كلما سمع الأذان للصلوات الخمس، وكلما حجزه إيمانه عن رغبة



مجنونة أو دفعه إلى عطاء سخي، أو وقفه ليشد أزر ضعيف، أو أغراه بالصياح في وجه منكر..!!

إن الربانية التي صنعها الدين أنفس معدنًا وأرجى ثوابًا من المواطنة التي صنعها الناس، ومع ذلك فالمسلم أول المدافعين عن الوطن وأول المحامين عن العشيرة وأول القائمين بالحقوق المطلوبة من كل إنسان كريم! لأنه يأبى الضيم ويرد العدوان.

وبديه أن يكون ذلكم الإِيمان هو الروح الساري في كيان الأمة كلها، والمنتظم للكبار والصغار والأقوياء والضعفاء والأغنياء والفقراء.

وبعد أن يرسي الإِسلام أسس هذا اليقين يفرض مبدأ الأخوة:

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾

(الحجرات: ١٠)

والأخوة ليست لفظًا أجوف، إنها رحم دينية موصولة تعطي ثمارًا أشهى وأزكى مما تعطي الديمقراطية والاشتراكية في الميدانين السياسي والاقتصادي، إنها خلق فردي ونظام





اجتماعي، وقد اعتمدت الدولة الإِسلامية منذ نشأتها الأولى على هذه الأخوة في مواجهة ظروف الحرب والسلام والإِقامة والهجرة واقتسام المغارم والمغانم وتحمل الأعباء والواجبات.

ومن ينبوع الأخوة ينبجس رافدان من روافد العزة والاستقرار هما مبدأ التناصر ومبدأ التحاب.

أساس التناصر أن المسلم لا يدع أخاه أبدًا يُحرَج أو يُذَلّ، ويمضي لشأنه تاركًا إياه يواجه وحده ما يقع له.. كلَّا، يجب أن يلزمه ويثبته ويدفع عنه، يحامي معه أو دونه.

والواقع أن أشجع الشجعان لا يستغني عن عنصر مادي يسعفه في الشدائد. إن المرء قد يغضب إذا أهين، وقد يستعد للقتال إذا قطع عليه الطريق! ولكنه يغضب ويستعد ويهجم على المعتدي إذا كان معه سلاحه، والمؤمن سلاح لأخيه، وعضدٌ له في الشدائد، والمؤمن بين إخوانه يتحرك بقواهم كلِّها، لا بقوته وحده، وهذا الشعور الجماعي من معالم الجماعة المسلمة.

قال عليه الصلاة والسلام: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه



ولا يسلمه..» وفي رواية: «المسلم أخو المسلم لا يخذله ولا يكذبه ولا يظلمه. إن أحدكم مرآة أخيه!!».(البخاري) وقال: «من ذبَّ عن عرض أخيه ردَّ الله النارَ عن وجهه يوم القيامة»(الطبراني في المعجم الكبير).

على أن لهذه النصرة الواجبة صورًا مختلفة تقتضي التبصر والروية، فليس الأمر عصبية عمياء، كلَّا، المهم إحقاق الحق وإبطال الباطل؛ فعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا. قيل: أنصره إذا كان مظلومًا، فكيف أنصره ظالمًا؟ قال: تحجزه عن الظلم فإن ذلك نصره». (مسند أحمد).

والاستعمار العالمي يجتهد في قتل مبدأ التناصر، وفك تضافر الأمة... أو قل: إن الاستعمار سخَّر الحكم الفردي لإشاعة الفتك والسفك ونشر العار والدمار حتى كانت بعض الشعوب الإسلامية تفقد ملكة الشجاعة وعاطفة التعاضد والتناصر، فأصبح أحدٌ لا يلوي على أحد!! ولكي نحيا لا بد من إحياء مبدأ التناصر بين المسلمين جميعًا.

أما المبدأ الثاني من آثار الأخوة الإسلامية فقوامه التحاب لوجه الله، وجعل الانتماء إليه عاطفة شريفة تعلو كل صداقة،



وترجَح كل قرابة! ولذلك جاء في الحديث القدسي: «يقول الله -عز وجل- يوم القيامة: أين المتحابون بجلالي؟ اليوم أظلهم في ظلي يوم لا ظل إلا ظلي»(رواه مسلم).

والواقع أن الحب في الله يهوِّن مشاق الحياة كما يهوِّن الحُداءُ مراحلَ الطريق ومتاعبَ العمل، وعندما يستوحش المرءُ من الناس، بل من نفسه، تجيء هذه العاطفة المباركة فتؤنس البعيد، وتمنحه قوة على مواصلة العمل لله والجهاد في سبيله.

وتقديرًا لهذه الحقيقة يقول الله سبحانه في الحديث القدسي: «وجبت محبتي للمتحابين فيّ، وللمتجالسين فيّ، وللمتزاورين فيّ، وللمتبادلين فيّ»(الموطأ)، يعني من ينفقون أموالهم بسخاء إجابة لهذه العاطفة حيث تفرض النفقة!

وليس حب المؤمن لإخوانه نافلة يتطوع بها إذا أراد، كلَّا، إنها أثر اليقين الناضج، ولا يسوغ أن يكون المؤمن ميتَ الإحساس يتحرك لما يعنيه ويبرد لما يعني غيره، إن هذا الانحصار الشخصي هدمٌ للجماعة وإضاعة للأمة، والمؤمن

الحق يحب غيره كما يحب نفسه، في هذا يقول النبي ﷺ : «والذي نفسي بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا، ألا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم» (أبو داود).

وتحية الإِسلام مفتاح التعارف أو نقطة البدء في انخلاع المرء عن عزلته واهتمامه بإِخوته، وفرحه بما يفرحهم وحزنه لما يحزنهم!

ومن اللطائف قول رسول الله ﷺ : «إذا أحب أحدكم أخاه فليخبره بأنه يحبه» (الترمذي)، وقوله: «إذا آخى الرجلُ الرجلَ فليسألْه عن اسمه واسم أبيه وممن هو؟ فإِنه أوصل للمودة!» (الترمذي).

وفي كل مجتمع بشري أغنياء وفقراء، حتى المجتمع الشيوعي فيه من يصبرون كرهًا على طعام واحد، ومن يطاف عليهم بالصحاف المنوعة، إن العلاقة بين هؤلاء وأولئك جديرة بالتأمل.

أيكون ذلك التفاوت مبعث حقد؟

عند المؤمنين بالدنيا وحدها لا ريب أنه يخلِّف في النفوس





آثارًا سيئة. أما المشغولون بآخرتهم -إلى جانب دنياهم- فهم لا يأبهون لذلك كثيرًا ما دام عند كل امرئ ما يكفيه ويغنيه، بل لقد وجدنا التنافس اتجه إلى ناحية أخرى، فقد شكا الفقراءُ إلى رسول الله ﷺ أنهم متخلفون عن الأغنياء في مجال الإِحسان! قد تجمعهم الصلاة والصيام، ويتساوون في الأجور، لكن الأغنياء يعتقون ويتصدقون ويجاهدون بمالهم ويمكنهم التفوق الاقتصادي من أعمال صالحة كثيرة.. أرأيتم فيم فكَّر فيه القوم؟ إنهم لم يشْكوا عيلةً في الدنيا ولا غبنًا نزل بهم، إنهم يفكرون في الآخرة، وتلك خاصة يمتاز بها مجتمع رباني؛ جاء في السنة أن فقراء المهاجرين أتوا رسول الله ﷺ فقالوا: ذهب أهل الدثور بالدرجات العلى والنعيم المقيم! قال: وما ذلك؟ قالوا: يصلون كما نصلي ويصومون كما نصوم ويتصدقون ولا نتصدق ويعتقون ولا نعتق، فقال رسول الله ﷺ: «ألا أعلمكم شيئًا تدركون به من سبقكم وتسبقون به من بعدكم؟ إلا من صنع مثل صنيعكم!»، قالوا: بلى يا رسول الله! قال: «تسبحون وتكبرون وتحمدون ثلاثًا وثلاثين مرة دبرة كل صلاة!». قال

أبو صالح: فرجع فقراء المهاجرين إلى رسول الله ﷺ فقالوا: سمع إخواننا أهل الأموال بما فعلنا ففعلوا مثله -يعنون أنه بقي لهم تفوقهم- فقال رسول الله ﷺ: «ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء»! (البخاري)

إن همة المؤمنين تنشد الرضوان الأعلى ومنازل الآخرة، وهذه الصبغة الربانية صانت الأمة الإسلامية في ميدانين مهمين:

الأول: في تلقي العلوم الدينية وصيانتها وتعليمها للآخرين ابتغاء وجه الله.

والثاني: في الجهاد المتفاني لرد أعداء الإسلام، واستبقاء دولته قائمة مع إلحاح الغارات الصليبية والوثنية عليها.

إن النجاح في هذين الميدانين استبقى أصول الإسلام ومعالمه وغطَّى عيوبًا كثيرة نشأت عن مفاسد الحكم، وشهوات الحكام.

وأمر آخر يظهر في ثبات البناء الإسلامي على تراخي الأزمنة، إن الإسلام عدَّ العمل للحياة عبادةً وعدَّ المال قوام الحياة وسياجها وكان الصحابة يقسمون أيامهم، فيجعلون



بعضها للبقاء مع النبي ﷺ يتعلمون ويقتدون، والبعض الآخر للضرب في الأرض يكدحون ويكسبون، فإذا غابوا عهدوا إلى إخوانهم الحاضرين أن يحفظوا لهم ما يجدّ من وحي وسنة، ليعرفوا بعد عودتهم ما هنالك، ثم يردون الصنيع لإخوانهم إذا غابوا.

ومن ثم لم يقع قط أن كان المسلمون في الشئون المدنية أخف كفة، أو أسوأ حظًا، والدين لا يتم تحصينه إلا بدنيا قائمة، وسناد مدني متين..!





٢٤- كيف يبني الإسلام المسلم القوي في مواجهة متغيرات العصر..؟

لا أظن الإنسان المعاصر يختلف عن الإنسان القديم الذي خاطبه أنبياء الله من عشرات القرون ! ولا أظن إنسان هذا العصر مكلفًا بوظيفة أخرى غير الوظيفة التي كُلِّف بها الإنس والجن من فجر التاريخ والتي أوضحها القرآن في هذه الكلمات الوجيزة:

﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾

(الذاريات: ٥٦)

إنه هو الإنسان السوي القوام، الخصب المواهب، المفضل على مخلوقات أخرى تملأ البر والبحر، الذي حمل وحده أمانة التكليف، وقدر على الترفع والإسفاف والتقوى والفجور..!

نعم، هناك أمور جديدة في هذا العصر، فقد تقدم العلم، واكتشف كثيرًا من أسرار الكون وقواه، وارتقت الصناعة، واخترعت آلات وأجهزة رفهت المعايش، ويسرت للإنسان في لحظاتٍ ما كان يعجز عن تحصيله في سنوات.. كما افتنَّ الإنسانُ في صناعة آلات الفتك والدمار الشامل حتى لأمست الحروبُ تؤذن بانتهاء العمران البشري.. وازدهرت العلوم





الإنسانية وطمحت أن تقود العالم أجمع في شئونه الأدبية والاقتصادية والسياسية.. .إلخ.

ماذا يصنع الإنسان المسلم وهو يواجه هذا الجديد كله..؟

إنني لخبرتي الحسنة بالإسلام لا أشعر بقلقٍ ما على إيماني أو منهجي في الحياة لكني أشعر بأن الإسلام هو الدين الأوحد لمواجهة هذا العصر! أليس عصر العلم؟ بلي، وكذلك ديني دين العلم الذي أهاب بالناس أن يبحثوا كل شيء:

﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ ﴾ (الأعراف: ١٨٥)

إن العلم مؤمن لا ملحد، وهو يدعو إلى الإيمان لا إلى المروق! وما كفر العلم في الأعم والأغلب إلا بما يجب الكفرُ به من كهانات وخرافات ومتناقضات! وأنا أؤيده في ذلك كله..!

إنني أرى بلادة الكفر ضربًا من الحيوانية! أو هي اقتراب منه! أليس يقول ربي:

﴿ ۞ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾

(الأنفال: ٢٢)

وقد تابعت استطلاع الآراء بين جماعات علمية في أوروبا وأمريكا فرأيت الكثرة الكبرى تؤمن بالله ووجدت







قلة متوقفة حائرة ووجدت ندرة تافهة زائغة القلب لا عقيدة لها . . فالزعم بأن جمهور العلماء لا دين لهم كذب ، أو شائعة تنشر لغرض خسيس ! !

إن روحي تعشق المعرفة كما يعشق الجسم وجبة شهية ، ومن محبة العلم يجيء هذا الدعاء

﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾

(طه : ١١٤)

وعلى المسلم إذا أحب مرضاة ربه أن يزداد تضلُّعًا في العلم ، واستكشافًا لآفاقه .

وما يسمى بالعلم المادي -أعني العلم الباحث في ملكوت الله- أرجح موضوعًا وأطيب ثمرة من الفلسفات الشَّرُود التي شاعت قديمًا وحديثًا ، ولم تكسب الإنسانيةُ منها إلا الحيرة والجدل ، والغرور .

أما التقدم الصناعي الذي نعَّم الإنسانَ وأراحه فهو خير كثير ! ونعمة جديرة بالشكر الجزيل ، ألم تر أن الله -تبارك اسمه- كي يرغب آدم في الطاعة ، أسكنه الجنة وقال له :

﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾

(طه : ١١٨ ، ١١٩)

أي لا تتكلف الكدح في وهج الشمس ، فتتصبب عرقًا



ويحول لونك وراء لقمة العيش.

من قال: إن الإنسان يحب الوصب والنصب وركوب المشقات؟ إذا كان هناك ما يغني عنها!

والمرء الآن ينتقل من بلد إلى بلد، ومن قارةٍ إلى قارةٍ، وهو جالس في كرسي وثير يتناول ما يشاء من طعام وشراب، تشق الطائرة به الجوَّ فإذا هو بعد ساعات بين أحبته!

ماذا كان يفعل أجدادنا عندما يغبِّرون أقدامهم، وتتغير ملامحهم ويتعرضون للحتوف في هذه الأسفار المعنتة؟

الحق أن هذا المتاع الميسر لنا ما ينقصه إلا شكر الله على ما هدى وأسدى!

وعلى المسلم أن يجيد هذه الصناعات المحدثة، وأن يألف استخدامها واستصلاحها، وأن يتفوق على جن سليمان الذين قال الله فيهم:

﴿ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴾

(سبأ: ١٣)

نعم إن المهارة في تلك الصناعات المدنية مهاد لا بد منه لإجادة الصناعات العسكرية التي تحتاج إليها حروب البر والبحر والجو...





من ناحية أخرى يجب التنويه بالشأو البعيد الذي بلغته الحضارة في التنظيمات السياسية والاقتصادية والإدارية التي تحرك الجماهير، وتوجهها إلى أهداف مرسومة. إن من وراء هذا النجاح تقدمًا عظيمًا في دراسة العلوم الإنسانية كلها، حتى كادت هذه العلوم تكون (الشريعة) التي تلتزمها أوروبا في أحوالها الخاصة والعامة، وهذه العلوم ليست إلا فروع الفلسفة القديمة بعد إدخال المنهج العلمي عليها، أو بتعبير أصح على بعضها؛ لأن هناك نظراتٍ في علوم التربية والاجتماع والاقتصاد بعيدة عن الدقة العلمية.

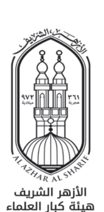
وأرى أن نستفيد نحن المسلمين من هذه الدراسات ومن تطبيقها في ميادين الحياة.

إن ضوابط الشورى هناك نجحت في محق الحكم الفردي وإعلاء سلطات الأمة، لم لا نستفيد من ذلك؟

وحماية المال العام -من الساسة المهرة في اختلاسه، أو الموظفين المحبين للسحت- بلغت منتهى الدقة، لماذا لا نقلد القومَ في تلك الوسائل الناجعة..؟

لست أجهل أن لدينا من علماء الدين من يكره العلوم الإنسانية وما نشأ عنها.. لأنه يقصر نظرته على ما بها من أخطاء، ولأنه يرى أن هذه العلوم تتحدث في النفس الإنسانية والمجتمع البشري، وقد قال الدين كلمته في هذه





النواحي كلها.

ومعاذ الله أن نهمد كلمة الدين في قضية نفسية أو اجتماعية! إننا نقتبس من جهود البشر ما يحقق الأهداف التي يتفق عليها العقل والنقل، وإذا سبقنا غيرنا إلى عمل ما يحقق العدالة فنحن أولى به..!

هل امتنع نبينا عن حفر الخندق لأنه خطة فارسية، أو حيلة لم يألفها العرب؟ كلا، والحضارة الحديثة، برغم مقابحها الكثيرة - تجاوبت مع العقل والفطرة في ساحات علمية ودستورية واسعة، من حقي أن أترك شرَّها وأقبلَ خيرها، وربما يدفعني إلى هذا أن الدين أصيب بمتحدثين عنه يجهلون جوهره، ويكترثون للمظهر الملصق به، وليس غالبًا منه.

سمعت رجلًا يقول بفخر إنه أقنع أحد الأمريكيين باعتناق الإسلام، وإن الداخل في ديننا بلغ من تقواه أنه اقتنع بلبس الجلباب الأبيض!!

قلت له في أسًى وسخرية: هل اقتنع بلبس العقال؟ قال: ما تعني؟ قلت: ما دخل الملابس في ديننا، ولماذا لا تترك الرجل يرتدي زيَّه القديم، ويعرف الناس من سمته وسيرته وشرف فكره وخلقه أنه مسلم؟

إن الإسلام لا يؤخذ من فقهاء البدو، ولا من عسكر الترك





ولا من دراويش التصوف !

لماذا ننسى فرائض ديننا وفضائله الأولى ونعلق الناس بتقاليد جنس ما، أو بخصائص عصر ما؟

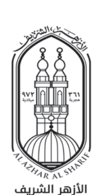
عرفتُ (إنجليزيًا) أسلم وتصوف، وانتمى إلى الطريقة النقشبندية! وأشهدُ أنه كان إنسانًا طيبًا! بيد أني يئستُ من أنه سينفع الإسلام بشيء طائل!

إن عدد المسلمين المهاجرين إلى إنجلترا يبلغ المليونين، وهم ضِعف اليهود الإنجليز، ولكنَّ أثر اليهود في ميدان الثقافة والسياسة والاقتصاد بعيد المدى، عميق الأثر، يكادون يوجهون إنجلترا كلِّها.. أمَّا المسلمون الذين يحمل أكثرهم جنسية إنجليزية، فلا وزن لهم في شيء!

إنهم -مثل غيرهم- لا يحملون الإسلام النازل من السماء، وإنما تستبد بأفكارهم وأحوالهم قضايا دخيلة وإضافات تافهة.

إن الإسلام يصفي القلب من الأهواء والعقلَ من الأوهام ويرصُّ صفوف المؤمنين بعدئذ في جهاد موصول لإعلاء كلمة الله.

أما مع فساد الفطرة واعوجاج الفكر، فلا مكان لإسلام.



الفهــرس

ـ المقدمة ٣

١- ما الإسلام؟ ولماذا سمي كذلك؟ ٥

٢- لماذا كان الإسلام خاتم الأديان؟ ١٢

٣- هل يستطيع الإنسان السوي الرشيد أن يعيش بلا إسلام؟! ١٧

٤- كيف بني الإسلام على خمس؟!

وما هي؟ ولماذا خمس بالذات؟ ٢٢

٥- ما مكان التصوف في الإسلام؟ ٣٠

٦- ما موقف أهل الكتاب في الإسلام؟ ٣٦

٧- هل الإيمان بالأنبياء الأولين والكتب السابقة ضروري في الإسلام؟ وما

حكمة ذلك؟ ٤٥

٨- ما مفهوم الإسلام عن الحياة والموت؟ ٥٤

٩- ما فكرة الإسلام عن البعث والجزاء؟ ٦١

١٠- ما البرزخ؟ وما دلالته في الإسلام؟ ٦٨

١١- ما طبيعة الجزاء الأخروي؟ وهل هو روحي أم مادي؟ هل خَلْقُ الإنسان

من روح وجسد شيء يعاب؟ ٧٥

١٢- ماذا عن القضاء والقدر؟

وكيف نوفق بين الآيات التي تدل على أن الإنسان مختار،

والأخرى التي تدل على أنه مجبر؟ ٨٣

١٣- ما دور المسجد في الإسلام؟ ٩٣





١٤ – لماذا كانت الصلوات خمسا في اليوم؟ وما شكل الصلاة المقبولة؟ ٩٩

١٥ – ماذا يرمز إليه الوضوء؟ ولماذا لا تصح الصلاة إلا به؟! ١٠٦

١٦ – ما حكمة الحج؟ ولماذا كان الطواف حول الكعبة وهي بناء من حجر؟...... ١١٢

١٧ – ما هي دار الحرب، وما هي دار الإسلام؟ ١١٩

١٨ – ما حقيقة الحرب والسلم في الإسلام؟ ١٢٦

١٩ – لماذا حمل الرسول السيف ولم يكتف بالإقناع؟ ١٣٣

٢٠ – هل الجهاد مقصور على الدفاع؛ أم يتجاوز ذلك لإكراه الناس بالقوة على الدخول في الإسلام؟ ١٣٩

٢١ – هل فريضة الجهاد لا تزال قائمة؟ وما واجب المسلمين اليوم تجاهها؟..... ١٤٦

٢٢ – ما معنى أن الله جعل المسلمين أمةً وسطًا؟ ١٥٢

٢٣ – كيف يبني الإسلام الأمة المسلمة؟ ١٥٩

٢٤ – كيف يبني الإسلام المسلم القوي في مواجهة متغيرات العصر..؟ ١٦٨

***

